الإنسان في القرآن

عباس محمود العقاد

نهضة مصر
للطباعة والنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

إِنْسَانُ القُرْءَانْ
وَإنسَانُ القَرْنِ العِشْرِينْ

تمهيد

إنسان القرآن هو إنسان القرن العشرين ، ولعل مكانه فى هذا القرن أوفق وأوثق من أمكنته فى كثير من القرون الماضية ، لأن القرون الماضية لم تلجئ الإنسان إلى البحث عن مكانه فى الوجود كله ، وعن مكانه بين الخلائق الحية على هذه الأرض ، وبين أبناء نوعه وأبناء الجماعة التى يعيش فيها من ذلك النوع ، وبين كل نسبة ظاهرة أو خفية ينتمى إليها ، كما ألجأه إلى ذلك كله هذا القرن العشرون . .

قديما كان الحكماء يجعلون شعارهم فى نصيحة الإنسان : « اعرف نفسك ! » .

وإنها لنصيحة قد ترادف سؤالهم : من أنت ؟ أو سؤالهم : ما اسمك ؟ غير أن الإنسان إذا أجابه فانما يجيبه باسم « باطنى » يعرفه بملامح وجدانه وقسمات ضميره ، ولا يقف عند تعريفه بالاسم الذى يختار اعتسافا من بضعة حروف . .

وهو على أية حال سؤال إلى « شخص » بعد شخص ، قد يسمعه عشرون فى الحجرة الواحدة ويجيبون عليه عشرين جوابا متفرقات . .

وقديما كانوا يزعمون أن أبا الهول كان يلقى سؤاله ، فيهلك من لم يعرف جوابه . وكان سؤالا عن الحيوان الذى يمشى على أربع فى الصباح ، وعلى اثنتين عند الظهيرة ، وعلى ثلاث عند المساء . . فكان سؤالهم لغزا من ألغاز الأقدمين عن الإنسان فى أطوار عمره ، بين الطفل الذى يحبو على أربع ، والفتى الذى يعتدل على قدمين ، والشيخ الذى يتحامل على عصاه ، وهو لغز شبيه بطفولة الإنسان كله . . لا تبتعد المسافة بين جهله وعلمه ولا بين الهلاك فيه والنجاة . .

إلا أن القرن العشرين جمع الأسئلة ، فلم يدع سؤالا عن نسبة من نسب الإنسان لم يطلب جوابه ، على نذير بالهلاك لمن جهل الجواب ، وقد يكون هلاكا للجسد والروح . .

ما مكان الإنسان من الكون كله ؟

ما مكانه من هذه السيارة الأرضية بين خلائقها الأحياء ؟ . .

ما مكانه بين أبناء نوعه البشرى ؟ وما مكانه بين كل جماعة من هذا النوع الواحد ، أو هذا النوع الذى يتألف من جملة أنواع يضمها عنوان « الإنسان » . . .

وهى أسئلة لا جواب لها فى غير « عقيدة دينية » تجمع للإنسان صفوة عرفانه بدنياه وصفوة إيمانه بغيبها المجهول . . تجمع له زبدة الثقة بعقله ، وزبدة الثقة بالحياة . . حياته وحياة سائر الأحياء والأكوان . .

إن القرن العشرين كان حقيقا أن يسمى بعصر « الايديولوجية » أو عصر الحياة « على مبدأ وعقيدة » لأنه كلما ألقى على الإنسان سؤالا من أسئلته تلك لم يعفه من جوابه ، ولم يسلمه إلى جزاء أهون من جزاء الحيرة عند السكوت عليه . . فإن يكن سكوتا عن الأجوبة جميعا فهو الهلاك المحدق بالأبدان والعقول .

وليس أكثر من « المبادىء والعقائد » التى نسمع عنها فى هذا القرن . ويسمونها بالمذاهب و « الأيديولوجيات » .

ولكن أجوبة القرن العشرين ، مهما يكن من شأنها ، فهى أجوبة العصر الذى يحل المشكلة الزمنية ولا يتعداها إلى مشكلة الأبد : مشكلة ما مضى وما أتى من الدهر وما يأتى إلى غير نهاية ، ولا جواب لهذه المشكلة غير العقيدة الدينية التى تؤمن بها الإنسانية ، فلا يغنى فيها إيمان فرد واحد بينه وبين ضميره ، أو جواب سؤال واحد لمن يقول : من أنت ؟ وماذا تعرف من نفسك بين عامة النفوس ؟ قصاراك إنك واحد منها بين ألوف الألوف ، عاشوا ويعيشون وسيعيشون ، ولا يسكتون عن تلك الأسئلة عامة ، ولا أمان لهم ولا لك إن سكتوا عليها .

هذه العقيدة الدينية توجد كما ينبغى أن توجد ، وإنما الضلالة فيمن يريدها على غير سوائها الذى تستقيم عليه ، ولا تستقيم على سواه .

هذه العقيدة الدينية لا توجد اليوم لتنبذ غدا ، ولا توجد على الأيام للعارفين دون الجاهلين ، وللعاملين دون الخاملين ، ولمن يطلبون الخير للناس دون من يطلبون الخير لأنفسهم ، ولمن يعتقدون دراية ومحبة دون من يعتقدون تسليما ورهبة ، ولمن يسعون سعيهم إلى العلم والإيمان دون من يقعدون فى مواطنهم منتظرين ، وقد

يقعدون وهم يجهلون إنهم قاعدون ، لا يعلمون ما الخبر وما المنتظر ؟ إن علموا أنهم منتظرون ! . .

هذه العقيدة بنية حية ، قوامها دهور وأمم ، ومعايش وآمال ، ونفوس خلقت ونفوس لم تخلق ، ونفوس يخلق لها تراثها قبل أن يصير إليها ، وسبيلها جميعا أن تتهدى إلى قبلة واحدة : تنظر إليها فتمضى قدما ، أو تفقدها فى الأفق فهى أشلاء ممزقة ، كأنها أشلاء الجسم المشدود بين مفارق الطريق . .

إن القرن العشرين ، منذ مطلعه ، يعرض العقيدة بعد العقيدة على الإنسان وعلى الإنسانية ، ولا نعلم إنه عرض عليها حتى اليوم قديما معادا أو جديدا مبتدعا هو أوفق من عقيدة القرآن ، وأوفق ما فيها أنها غنية عن الاختراع والامتحان ، وأنها على شرط العقيدة الدينية من بنية حية ، شملت ملايين الخلق وثبتت معهم وحدها فى كل معترك زبون ، يوم خذلتهم كل قوة يعتصم بها الناس .

* * *

ونحن ندعى فى هذه الصفحات أن المنصف بين النصائح لا يستطيع أن ينصح لأهل القرآن بعقيدة فى الإنسان والإنسانية أصح وأصلح من عقيدتهم التى يستوحونها من كتابهم ، وإن القرن العشرين سينتهى بما استحدث من مبادىء ومذاهب و « إيديولوجيات » ولا ينتهى ما تعلمه أهل القرآن من القرآن . .

وإن أهل هذا الكتاب يتدبرون القول ، فيتبعون أحسنه إذا تدبروا فلم يأخذوا بعقيدة من هذه العقائد التى يروجها دعاتها باسم المادية ، أو الفاشية ، أو العقلية ، ويريدون بها أن تكون على الزمن بديلا من العقائد الإلهية ، ومن عقائد الغيب الذى يحسبونه معدوما أو موجودا كمعدوم .

وقد استمع الناس إلى المادية التاريخية ، فقالت لهم إن الإنسان عملة « اقتصادية » فى سوق الصناعة والتجارة ، تعلو وتهبط فى طبقاتها بمعيار العرض والطلب وصفقات الرواج والكساد . أما الإنسانية فقد أنصتت إلى المادية التاريخية ،

فقالت لها إنها شيء لا وجود له مع طوائفها التى تخلقها الأسعار والأجور . .

واستمع الناس إلى الفاشية فقالت لهم إن الإنسان واحد من عنصر سيد أو عنصر مسود ، وإن أبناء الإنسانية جميعا عبيد للعنصر السيد ، والعنصر السيد قبل ذلك عبد للسيد المختار ، بغير اختيار .

واستمع الناس إلى « العقلية » فقال لهم قائل منها إن « إنسانيتهم » كذلك شيء لا وجود له ووهم من أوهام الأذهان ، وإن الشيء الموجود حقا هو الفرد الواحد ! . . وبرهان وجوده حقا أن يفعل ما استطاع من نفع أو أذى ، كلما أمن المغبة من سائر الأفراد والأحداث ، . !

وغير جديد ما استمعوه من أهل العقائد الإلهية عن مكان هذا الإنسان من الأرض والسماء ، ومكانه من إخوته فى آدم وحواء .

سمعوا إنه روح وجسد ، ودنيا وآخرة ، ينجو شطره بمقدار ما يهلك شطره ، ويصح له الوجود بمقدار ما صح له من عقبى الفناء . .

وسمعوا إنه إنسانان . . إنسان صحيح مقبول ، وإنسان زائف مدخول . . صحيح مقبول كل من اجتباه مولاه على هواه ، وزائف مدخول كل من خلقه ونفاه ، ولعله لم يخلقه ودعاه إليه من دعاه .

وسمعوا أن الإنسان يولد بذنب غيره ، ويموت بذنب غيره ، ويبرأ من الذنب بكفارة غيره ، ويمضى بين النعمة واللعنة بقدر من الأقدار ، لا نصيب له فيه من عصيان أو طاعة ، ومن إباء أو اختيار .

وسمعوا من القرآن غير ذلك ، فهم متدبرون يستمعون إلى العقل كما يستمعون إلى الإيمان إذا اطمأنوا وثبتوا على اطمئنانهم إليه . .

الإنسان فى عقيدة القرآن هو الخليقة المسئول بين جميع ما خلق الله . . يدين بعقله فيما رأى وسمع ، ويدين بوجدانه فيما طواه الغيب ، فلا تدركه الأبصار والأسماع .

و « الإنسانية » من أسلافها إلى أعقابها أسرة واحدة لها نسب واحد وإله واحد ، أفضلها من عمل حسنا واتقى سيئا ، وصدق النية فيما أحسنه واتقاه . .

* * *

وفى الصفحات التالية كتابان فى كتاب وجيز . . نبدأهما بعقيدة القرآن فنعيد هذه الكلمات القلائل فى صفحات ، ونتلوها بعرض مفيد لتاريخ البحث عن نشأة الإنسان فى مذاهب الفكر والعلم أو مذاهب الحدس والخيال ، ولا نزيد فى سردها على الالمام بما يصلح أن يكون محكا للنظر فيما يؤخذ بالبرهان أو يؤخذ بالإيمان عن حقيقة الإنسان . .

الكتاب الأول

الإنسانُ في القرآن

المَخْلُوقُ المسْئُول

ارتفع القرآن بالدين من عقائد الكهانة والوساطة وألغاز المحاريب إلى عقائد الرشد والهداية . . لا جرم كان « المخلوق المسئول » صفوة جميع الصفات التى ذكرها القرآن عن الإنسان ، إما خاصة بالتكليف أو عامة فى معارض الحمد والذم من طباعه وفعاله . .

ولقد ذكر الإنسان فى القرآن بغاية الحمد وغاية الذم فى الآيات المتعددة وفى الآية الواحدة فلا يعنى ذلك إنه يحمد ويذم فى آن واحد ، وإنما معناه إنه أهل للكمال والنقص بما فطر عليه من استعداد لكل منهما ، فهو أهل للخير والشر ، لأنه أهل للتكاليف .

والإنسان مسئول عن عمله - فردا وجماعة - لا يؤخذ واحد بوزر واحد ، ولا أمة بوزر أمة :

﴿ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴾ « سورة الطور آية ٢١ »

﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ « سورة البقرة آية ١٣٤ » .

* * *

أما مناط المسئولية فى القرآن ، فهو جامع لكل ركن من أركانها يتغلغل إليه فقه الباحثين عن حكمة التشريع الدينى أو التشريع فى الموضوع . .

فهى بنصوص الكتاب قائمة على أركانها المجملة : تبليغ ، وعلم ، وعمل . . فلا تحق التبعة على أحد لم تبلغه الدعوة فى مسائل الغيب ومسائل الإيمان :

﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾

« سورة يونس آية ٤٧ »

* * *

﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ « سورة فاطر آية ٢٤ »

* * *

﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ « سورة الاسراء آية ١٥ »

* * *

أما العلم فإن أول آية فى الكتاب تلقاها صاحب الدعوة الإسلامية ، كانت أمرا بالقراءة وتنويها بعلم الله وعلم الإنسان :

﴿ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ « سورة العلق ٣-٥ »

وأول فاتح فى خلق الإنسان ، كانت فاتحة العلم الذى تعلمه آدم وامتاز به على سائر المخلوقات :

﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ « سورة البقرة آية — ٣٢ »

* * *

وأما العمل فهو مشروط فى القرآن بالتكليف الذى تسعه طاقة المكلف ، وبالسعى الذى يسعاه لربه ولنفسه .

﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ « سورة البقرة آية ٢٨٦ »

﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾ « سورة النجم آية ٣٩ »

﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾
« سورة الزلزلة ٧ - ٨ »

ورسل البلاغ هم أول المكلفين بالعلم والعمل ، أممهم جميعا أمة واحدة هى « الأمة الإنسانية » والههم جميعا إله واحد هو رب العالمين :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَـٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ وَإِنَّ هَـٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴾ .

« سورة المؤمنون ٥١- ٥٢ » .

* * *

وفيما ذكر فيه الإنسان من آيات الكتاب وصف له ، وهو فى الذروة من الكمال المقدور له بما ستعد له من التكليف ، ووصف له وهو فى الدرك الأسفل من الحطة التى ينحدر إليها بهذا الاستعداد ، وكل هذه الآيات توسع مفصل فيما ورد من نصوص الأمر والنهى ، والعظة والتذكير. والثواب والعقاب . .

فالإنسان أكرم الخلائق بهذا الاستعداد المتفرد بين خلائق السماء والأرض ، من ذى حياة أو غير ذى حياة :

﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَـٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَـٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَفَضَّلْنَـٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾

« سورة الاسراء٧٠ » .

* * *

﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ « سورة التين آية ٤ »

﴿ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ ﴾ « سورة لقمان آية ٢٠ » .

﴿ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ « سورة الحج آية ٦٥ » .

* * *

ولكنه ينفرد بين الخلائق بمساوىء لا يوصف بها غيره ، لأن السيئة والحسنة – على السواء – لا يوصف بها مخلوق غير مسئول . .

فهذا المخلوق المسئول يوصف دون غيره من الخلائق بالكفر والظلم والطغيان والخسران والفجور والكنود ، لأنه دون غيره أهل للايمان والعدل والرجحان والعفاف .

﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ « سورة إبراهيم ٣٤ » .

* * *

﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴾ « سورة العلق ٦ — ٧ » .

* * *

﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴾ « سورة العصر آية ٢ » .

* * *

﴿ بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ ﴾ « سورة القيامة آية ٥ » .

* * *

﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ﴾ « سورة العاديات آية ٦ »

* * *

وقد يذكر بالضدين فى الآية الواحدة كما جاء فى قوله تعالى :

﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ﴾
«سورة التين ٤ — ٥» .

ونقرأ فى بعض التفاسير أن أسفل سافلين هو أرذل العمر ، وهو يقتضى أن يكون « أحسن تقويم » هو تقويم الطفل الوليد .

ونقرأ فى غيرها أن أسفل سافلين هى الجحيم ، فيكون لزاما أن الجنة هى المقصودة بأحسن تقويم .

وفهم الكثيرون أن التقويم الحسن هو الصورة الظاهرة لاعتدال قوام الإنسان ، وليس جمال الخلق وحده مرتبطا باعتدال القوام ، بل ترتبط به القدرة على العمل

والإرادة ، وهى قدرة لم تخف علاقتها بصورته الظاهرة قبل عصر التشريح والعلم بوظائف الأعضاء الذى أثبت العلاقة الضرورية بين اعتدال القامة وجهاز النطق فى الرأس والعنق وعمود الظهر وسائر البدن ، ثم زاد الناس علما بما يعنيه التقويم الحسن من فضائل العقل والجسد ومن مزايا الفطنة والجمال .

وإنما المعنى الموافق لسائر معانى الآيات ، أن الجمع بين النقيضين فى الإنسان ينصرف إلى وصف واحد ، وهو وصف الاستعداد الذى يجعله أهلا للترقى إلى أحسن تقويم وأهلا للتدهور إلى أسفل سافلين .

على أن الآيات التى قصر فيها القول على خلق جسد الإنسان ، لم تخل مما يوحى إلى المخلوق المسئول أن أطوار خلقه السوى إعداد لما هو أشرف من حياته الحيوانية ، وبرهان من براهين التبليغ برسالة الغيب،عسى أن ينظر فى الخلق فيرى فيه آثار الخالق الذى لا تدركه الأبصار والأسماع :

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾

« سورة المؤمنون ١٢– ١٤ » .

* * *

﴿ ذَٰلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٦) الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ (٧) ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ (٨) ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ ۖ ﴾

« سورة السجدة ٦– ٩ » .

* * *

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴾

« سورة الروم آية ٢٠»

* * *

﴿ سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴾ « سورة يس آية ٣٦ » .

ولا يسأل الإنسان عما يجهل ، ولكنه يسأل عما علم وعما وسعه أن يعلم ، وما من شيء فى عالم الغيب أو عالم الشهادة هو محجوب كله عن علم الإنسان ، فما وسعه من علم فهو محاسب عليه .

الكائن المكلف

القرآن كتاب تبليغ وإقناع وتبيين ، وقوام هذه الفضيلة فيه هذا التوافق التام بين أركانه وأحكامه ، وبين عقائده وعباداته ، وبين حجته ومقصده ، فكل ركن من أركانه يتنزل فيه بأقداره ، ويوافق فى تفصيله سائر أركانه التى تتم به أو يتم بها على قدر مبين .

ليس أتم ولا أعجب من التوافق بين تمييز الإنسان بالتكليف ، وبين خطاب العقل فى هذا الكتاب المبين ، بكل وصف من أوصاف العقل ، وكل وظيفة من وظائفه فى الحياة الإنسانية .

وخليق بالمسلم ، وبكل دارس للأديان ، أن يتنبه إلى هذه الفضيلة التى تحسب لأول وهلة كأنها شيء من الواقع البديهى لا يحتاج إلى التنبيه ، ولكن حاجته إلى التنبيه إنما تظهر عند المقارنة بين القرآن وبين جملة من الكتب الدينية الكبرى ، فى فضيلة التبليغ المقصود ، ونعنى به التبليغ الذى يراد ويتناسب فيه البيان على حسب الأحكام والأركان .

فى كثير من الأديان أركان تقوم عليها دعائم الدين كله ويرتبط بها نجاة الإنسان من الهلاك أو ضياعه فى هاوية المقت واللعنة ، ثم تبحث عن هذه الأركان فى كتاب الدين فإذا هى معروضة فيه بين السطور ، يحيلها المفسرون إلى حكم القرينة ، ويجوز لمن شاء أن يحسبها من مصادفات القول يتساوى السكوت عنها والنص عليها . .

مثل هذا لا يعرف فى حكم من أحكام الكتاب المبين ولا فى ركن من أركانه ، بل المعروف فيه على نقيض ذلك أن تبليغه على قدر فريضته وأن التوافق فيه على أتمه بين الأركان التى تتلازم وتتكامل ، عن بيان مقدور لا محل فيه لفرض المصادفة ، بل لا محل فيه لتجاهل القصد مع رسالة من رسالات التبليغ . .

مكان الإنسان فى القرآن الكريم هو أشرف مكان له فى ميزان العقيدة وفى ميزان الفكر وفى ميزان الخليقة الذى توزن به طبائع الكائن بين عامة الكائنات . .

هو الكائن المكلف . .

هو كائن أصوب فى التعريف من قول القائلين « الكائن الناطق » وأشرف فى التقدير . .

هو كائن أصوب فى التعريف من الملك الهابط ومن الحيوان الصاعد ، وأشرف فى التقدير من هذا وذاك .

ليس الكائن الناطق بشيء ، إن لم يكن هذا النطق أهلا لأمانة التكليف وليس الملك الهابط منزلة تهدى إلى طريق الصعود أو طريق الهبوط ، وليس الحيوان الصاعد بمنزلة الفصل بين ما كان عليه وما صار إليه ، ولا بمنزلة التمييز بين حال وحال فى طريق الارتقاء .

إنما الكائن المكلف شيء محدود بين الخلائق بكل حد من حدود العقيدة أو العلم أو الحكمة ، وحادث من حوادث الفتح فى الخليقة موضوع فى موضعه المكين بالقياس إلى كل ما عداه . .

أى شيء أعجب من هذه الخاصة المحكمة ينفرد بها القرآن بين تعريفات الفلسفة وتعريفات الدعوة الدينية . .

إنها عجيبة لا يدفع عجبها إلا أنها تجرى على سنتها من تبليغ الكتاب المبين . .

إنها عجيبة لم تأت من مصادفات التضمين والتخمين ، لأن الكتاب الذى ميز الإنسان بخاصة التكليف ، هو الكتاب الذى امتلأ بخطاب « العقل » بكل ملكة من ملكاته ، وكل وظيفة عرفها له العقلاء والمتعقلون ، قبل أن يصبح العقل « درسا » يتقصاه الدارسون كنها وعملا ، وأثرا فى داخله وفيما خرج عنه ، وفيما يصدر منه وما يثول إليه . .

العقل وازع « يعقل » صاحبه عما يأباه له التكليف . .

العقل فهم وفكر يتقلب فى وجوه الأشياء وفى بواطن الأمور . .

العقل رشد يميز بين الهداية والضلال . .

العقل روية وتدبير . .

العقل بصيرة تنفذ وراء الأبصار . .

والعقل ذكرى تأخذ من الماضى للحاضر ، وتجمع العبرة مما كان لما يكون ، وتحفظ وتعى وتبدئ وتعيد . .

والعقل بكل هذه المعانى موصول بكل حجة من حجج التكليف ، وكل أمر بمعروف ، وكل نهى عن محظور . .

أفلا يعقلون ؟ أفلا يتفكرون ؟ أفلا يبصرون ؟ أفلا يتدبرون ؟ أليس منكم رجل رشيد ؟ أفلا تتذكرون ؟

إن هذا العقل بكل عمل من أعماله التى يناط بها التكليف حجة على المكلفين فيما يعنيهم من أمر الأرض والسماء ، ومن أمر أنفسهم ومن أمر خالقهم ، وخالق الأرض والسماء ، لأنهم :

﴿ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا ﴾

« سورة آل عمران آية ١٩١ » .

* * *

﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ ﴾

« سورة الروم ٨ » .

وقد ننقل تكاليف القرآن جميعا ، وننقل عظاته جميعا إذا أردنا الشواهد على هذا التوافق الموصول بين تمييز الإنسان بالتكليف فى القرآن وبين خطابه للعقل والفكر ، وتذكيره بالرشد والبصر وسائر ملكات التمييز فى مصطلحات الأوائل والأواخر ، ولكنها شواهد حاضرة فى ذهن كل قارىء لهذا الكتاب ، وكل قادر على المقابلة بينه وبين غيره من كتب الأديان ، ولو لم يعبر منها غير صفحات معدودات .

ومن تمام التوافق بين أركان التبليغ فى هذا الكتاب أن الأمر فيه يجرى على هذه السنة ، فيما أتى به فريدا غير مسبوق عن رسالة النبوة . .

إنها الرسالة التى لم تعرف قط فى التاريخ البشرى قبل تمييز الإنسان بخاصة التكليف وإعداده لخطاب العقل وبينات الاقناع . .

كانت الأمم – قبل البعثة المحمدية – تفهم أن النبوة استطلاع للغيب وكشف للاسرار والمخبآت ، يستعان بها على رد الضائع وإعادة المسروق أو الدلالة عليه ، ويستخبرونها عن طوالع الخير والشر ومقادير السعود والنحوس ، وكان من تلك الأمم من يحسب أن النبوة وساطة بين المعبود وعباده للتشفع إليه بالهدايا والقرابين ، وكانوا يطلبون وساطة الأنبياء دفعا للنوازل التى يستحقونها وتنزل بهم ، لأنها قضاء مبرم يتوقعه الصالحون العارفون ، ويسألون المعبود فى دفعه قبل نزوله . . فجاءت نبوءة الإسلام بجديد باق لم تسبق له سابقة فى الدعوات الدينية ، بل لا حاجة بعده إلى جديد ولا استطاعة للتجديد ، لأنه يخاطب فى الإنسان صفته الباقية وخاصته الملازمة ، وهى خاصة النفس الناطقة بين عامة الأحياء ، أو خاصة الضمير المسئول الذى يحمل تبعته ولا تغنيه عنها شفاعة ولا كفارة من سواه . .

فهى نبوة فهم وهداية ، وليست نبوة استطلاع وتنجيم . . وهى نبوة هداية بالتأمل والنظر والتفكير ، وليست نبوة خوارق وأهوال تروع البصر والبصيرة وتروع الضمائر بالتخويف والارهاب حيث يعييها قبول الاقناع . .

إنها نبوة مبشرة منذرة لا تملك لهم نفعا ولا ضرا ، ولا تعمل لهم عملا غير ما يعملونه لأنفسهم بمشيئتهم إذا اهتدوا بهداية العقل المتدبر والضمير السليم :

﴿ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾

« سورة الاعراف آية ١٨٨ » .

نعم . . ولا إغراء ولا مساومة على جزاء بين الأخذ والعطاء :

﴿ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴾

« سورة الانعام آية ٥٠ » .

وقد جاءت سمعة المعجزة ميسرة لصاحب هذه النبوة يوم مات ابنه إبراهيم وكسفت الشمس ، فظن الناس أنها كسفت لموته ، وأبى النبى الصادق أن يسكت عليها ، فتكلم ليعلمهم أن الشمس والقمر آيتان لا تخسفان لموت أحد ولا لحياته .

وقد بين للناس أن المعجزة لا تجدى من يكابر العقل ويأبى الاصغاء إلى بينات الإقناع :

﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴾ « سورة الحجر ١٤- ١٥ » .

ولقد تقدمت نبوة الإسلام دعوات كثيرة ، من أكبر الدعوات شأنا فى تاريخ العقيدة ، ولكنك لو عرضتها على مؤرخ ينظر فى أدوار التاريخ لم يستطع أن يختتم دور النبوة فى تاريخ الإنسانية بدعوة من تلك الدعوات على جلالة شأنها ، لأنها جميعا قد بدأت وانتهت قبل أن توجد فى أذهان الناس فكرة الإنسانية العامة وفكرة الإنسان المسئول المحاسب على أمانة العقل والضمير . .

فنبوات بنى إسرائيل لم تزل مقصورة على سلالة بشرية واحدة ، تنعزل بحاضرها ووعود مستقبلها عن سائر الأمم. وعيسى عليه السلام قد نقل الرسالة نقلة واسعة حين أدخل أبناء إبراهيم بالروح فى عداد أبنائه بالجسد ، ولكنه أدى رسالته وبقى الإنسان بعده محتاجا أشد الحاجة إلى رسالة تخلصه من الاعتماد على غيره فى النجاة من أوزاره والتكفير عن سيئاته والنهوض بتبعات صلاحه وتربية روحه ،ولن تفرغ أمانة النبوة فى تاريخ الإنسانية قبل أن يوجد الإنسان الذى يخاطب بخطاب العقل ويحاسب بحسابه ، ويحمل تبعاته على عاتقه ويشترك على سواء بينه وبين إخوانه من البشر فى عبادة إله واحد ، هو رب العالمين ، وليس بالرب الذى يخلق نعمته لسلالة واحدة من خلقه ، أو لعشيرة واحدة يدركها الخلاص بفضل لم تفضله ، وحساب لم تضعه فى موازينها بعمل يمينها . .

فلما جاءت نبوة التكليف ، صح فى حكم العقل أن تختتم بها النبوة لأنها حاضرة فى كل وقت يحضره الإنسان العاقل المسئول ، وتحضره آيات الله لقوم يعقلون .

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ « سورة البقرة »١٦٤ .

* * *

إن قيام النبوة على إقناع العقل المسئول بآيات الكون ، قد اختتم سلطان الأحبار والقادة كما اختتم سلطان النبوات بالمعجزات وخوارق العادات ، فلا يعذر الإسلام إنسانا يعطل عقله ليطيع السادة المستكبرين أو ليطيع الأحبار المتسلطين بسلطان المال والدين :

﴿ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ ﴾ « سورة النساءآية ٩٧ » .

* * *

﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم ۖ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴾ « سورة سبا ٣٢ » .

* * *

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۗ ﴾ « سورة التوبة ٣٤ » .

* * *

﴿ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ « سورة التوبة ٣١ » .

* * *

فلا يسقط التكليف عن العاقل أن يطيع المتحكمين بطغيان الحكم أو طغيان الكهانة ، ولا يمنعه التكليف أن يسأل من يعلم إن كان لا يعلم ، لأن طلب العلم يحقق واجب التكليف ولا يعطله أو يلغيه ، ويوجب على المتعلم أن يتبين من يسأل وهو مسئول عما يفعل :

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۚ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ « سورة النحل آية ٢٤٣ »

فإذا سمى ختام النبوة باسمه الحق فى تاريخ الإنسان ، فاسمه الحق أنه هو فاتحة عهد الرشد فى حياة الإنسانية الخالدة ، قبل عهد الرشد الذى أخرجته القرون الوسطى بسبعة قرون .

ومن عبث الجهالة أن يفهم هذا الميقات الجليل فهم العقول الصغار ، فلا يعطى حقه من الفهم ولا حقه من التقديس ، وتسمع من يفسره فى « عصر العلم » فلا يفهم منه إلا أنه « حكر » الاثرة يغلقه النبى على من بعده ، ويسيغ هذا السخف وهو صورة لا تقبل التصور عن هذا النبى ، كيفما تصوره الناظر إليه على حقيقته أو على دعواه . . فهذا « الحكر » صنيع لا يصنعه نبى أمر أتباعه بتصديق الأنبياء من قبله ، وجهد جهده لينفى سلطان الغيب عن نفسه ، ويطرد سمعة المعجزة عن دعوته ، وهى طيعة منقادة بين يديه . . فإن جاز فى حقه هذا « الحكر» المغتصب ، فهل يجوز فى حقه أن يغتصبه من الله وأن يأمن تكذيب الله إياه ، وقدرته على إخلاف دعواه ؟

إن اختتام النبوة لا يفهم هذا الفهم الصغير فى عقل يطيق أن يدرك الواقع من أمر دعوة عظيمة ولا شأن عظيم ، ولو كان احتكار النبوة باعث النبى إلى دعواه لما دخل فيها ذهاب سلطان الأحبار والولاة ، ولا دخل فيها ادعاء النبوة أصلا وهى لا تخول النبى ، ولا مدعى النبوة أن يحجب المغيب المجهول من مشيئة الله .

ولكن الإيمان بالعقل المسئول ، هو الباعث البين الذى يفسر ما لم يفسره صغار العقول من اختتام النبوة واختتام الكهانة واختتام سلطان الحاكمين على الضمير وان انتظامه كله على هذه السنة المتفقة لهو الآية الناطقة بارادة الله .

رُوحٌ وَجَسَد

عقيدة الروح إحدى العقائد الغيبية فى القرآن . . والعقائد الغيبية أساس عميق من أسس التدين ، تقوم عليه كل ديانة يطمئن إليها ضمير الإنسان ، ولكن الفضيلة الأولى فى عقائد القرآن الغيبية انها لا تعطل عقول المؤمنين بها ، ولا تبطل التكليف بخطاب العقل المسئول ، وهو يؤدى حق التمييز وحق الايمان والإسلام : إسلام الأمر كله إلى الخالق المعبود . .

وعقيدة الروح إحدى العقائد « الغيبية » التى نلمس فيها هذه الفضيلة ، كأنها من حقائق الحس وإن وجب على العقل الإنسانى أن يؤمن بعمله القليل فيها ، وأن يسلم تسليم الإيمان بأنها من علم الله . .

ذلك بأن الايمان بالروح ، لم يفرض على العقل البشرى فى القرآن الكريم نقيضة من النقائض التى تشطره بين ضدين متدابرين ، ولم يفصم النفس البشرية بفاصم من الحيرة بين الخلقتين : خلقة الإنسان روحا مجهول القوام ، وجسدا معروف المطالب والغايات ، محسوس اللذات والآلام .

فالروح والجسد فى القرآن الكريم ملاك الذات الإنسانية ، تتم بهما الحياة ولا تنكر أحدهما فى سبيل الآخر ، فلا يجوز للمؤمن بالكتاب أن يبخس للجسد حقا ليوفى حقوق الروح ، ولا يجوز له أن يبخس للروح حقا ليوفى حقوق الجسد ، ولا يحمد منه الاسراف فى مرضاة هذا ولا مرضاة ذاك . . وعلى الله قصد السبيل .

والقرآن الكريم ينهى عن تحريم المباح كما ينهى عن إباحة المحرم :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَـٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾ وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَـٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴾ « سورة المائدة آية ٨٧– ٨٨ » .

والقرآن الكريم يعلم المؤمن به أن يكسب الطيبات من صنع يده ، وأن ينفق منها غير مسرف فى إنفاقه ، وأن ينعم بالطيبات من ثمرات الأرض وخيراتها لأنها نعمة مشكورة لا يحل له أن يجتنبها :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الْأَرْضِ ﴾ « سورة البقرة ١٧٢ » .

* * *

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ « سورة البقرةآية ٢٦٧ » .

* * *

ومن تمكين الإنسان فى الأرض أن يبتغى فيها معيشته ويسيم فيها مطيته ، وأن يتخذ منها زينته ، ويتم بها عدته ، ولا يزهد فى شىء من خيراتها يخرجه لنفسه أو تخرجه له الأرض من فضل ربه :

﴿ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ ۚ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩﴾ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ۖ لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾

« سورة النحل آية ٨- ١١ » .

* * *

بل الزينة للعبادة واجبة كوجوبها لمقاصد الدنيا ومطالب المعيشة ، والخطاب فى هذا موجه إلى بنى آدم لأنه نعمة مرضية من نعم الإنسانية ، ومن تمييز الله لهذا الإنسان على سائر الحيوان :

﴿ يَـٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُواْ وَاشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَالطَّيِّبَـٰتِ مِنَ الرِّزْقِ ﴾ « سورة الاعراف آية ٣١ – ٣٢ »

* * *

﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّـٰكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَـٰيِشَ ﴾

« سورة الاعراف آية ١٠ »

* * *

فهو من تمكين بنى آدم بين خلائق الله ، وهو من حق المعيشة الأرضية وواجب الحياة الدنيوية ، لا تناقض فيه بين روح وجسد ، ولا تنازع فيه بين دنيا وآخرة ، ولا فصام فيه للذات الإنسانية يحار فيه العقل وتتمزق به أوصال الضمير.

وقوامه فى خطاب التبليغ للإنسان من بنى آدم كافة :

﴿ وَابْتَغِ فِيمَآ ءَاتَـٰكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ﴾

« سورة القصص آية ٧٧ » .

* * *

فليس السعى فى سبيل الدنيا ضلالا عن سبيل الآخرة ، وليس فى القرآن فصام بين روح وجسد ، أو انشقاق بين عقل ومادة ، أو انقطاع بين سماء وأرض ، أو شتات فى العقيدة يوزع « الذات الإنسانية » بين ظاهر وباطن وبين غيب وشهادة ، بل هى العقيدة على هداية واحدة تحسن بالروح كما تحسن بالجسد ، فى غير إسراف ولا جور عن السبيل :

﴿ وَمِنْهَا جَآئِرٌ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (سورة النحل آية ٩)

إن القرآن الكريم بهذا الالهام الصادق ، ينقذ العقل من نقائض التفكير ، ولا ينجيه من نقائض التكليف وحسب ، أو من نقائض الحيرة بين العالمين فى حقائق الدين ، ولا مزيد .

فمن ضلال التفكير قديما ، أنه ساق كبار العقول إلى ذلك الفاصل المعتسف بين عالم النور والفلك الأعلى ، وعالم التراب والأرض السفلى . .

كل ما فوق القمر فهو صفاء وطهارة ، وكل ما دون القمر فهو كدر ودنس ، وكل ما هنالك فهو جوهر خالص ، وكل ما دونه فهو عرض مشوب أو أعراض لا يصفو لها وجود ولو أشرق عليها عالم النور .

وعلى مثل هذا « التفاضل » المسلم به بين النور والتراب ، وبين الجوهر والعرض ، قد دار كل ما دار قديما وحديثا – فى الدين والعلم – من عزل أصيل بين الصفاء والكدرة ، وبين العقل والمادة ، وبين الروح والجسد ، وبين النقيضين من النور والظلام . .

إن هذا الاعتساف فى التفريق بين هذين الوجودين المتقابلين ، قد عطل العقل زمنا طويلا عن فهم حقائق الحس ، كما عطله ولا يزال يعطله عن فهم حقائق التكليف وحقائق الأديان .

إن العقل ليعلم اليوم أن ذرات التراب وذرات الضياء ، من معدن واحد ، وأن الحجر اليابس يتفتت فإذا هو شعاع ، وأن الشعاع المنطلق ينعقد ويتقابل فإذا هو حجر ، وأن الفيصل بين ضياء الفلك وضياء العقل قائم لا شك فيه ، ولكن لا شك كذلك فى خفاء هذا الأمر على العلم كخفائه على الايمان . .

فماذا يقول العالمون بالذرة من « المؤمنين » بالمادة دون الروح ؟

ماذا يقولون عن عقل « الدماغ » كيف يرى ما لا تراه العين بشعاع الضياء ؟

سيقولون علما ما قال به قارىء الكتاب إيمانا حين قيل له عن الروح فسمع وصدق وقلبه مطمئن بالايمان :

﴿ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾

« سورة الاسراء آية ٨٥ » .

النَّفْس

تكلم حكماء اليونان عن العقل والروح والنفس بمعانيها التى تنسب إلى الكون . .

وتكلموا عن العقل والروح والنفس بمعانيها التي تنسب إلى الإنسان . . ورتبوها على حسب صفاتها وعلو جوهرها ، فكان العقل عندهم أولها وأشرفها ، لأن جوهر العقل المطلق هو الله جل شأنه ، والعقل الالهى هو العقل الفعال Poietikos المنزه عن المادة والهيولى ، وعنه يصدر العقل الإنسانى أو العقل المنفعل Pothetikos

ثم تأتى الروح والنفس بعد ذلك فى الصفاء والشرف . . فعندهم أن الروح أقرب إلى عنصر النور ، وأن النفس أقرب إلى عنصر الهواء والتراب ، ويقول أتباع أفلوطين أن العقل الالهى فيض منعم صدر عنه « النفس » ومنه صدر ما دونها من الموجودات على ترتيب شرفها وصفاتها ، وهم يذكرون النفس بصيغة المذكر ويتابعهم فى ذلك من كتبوا بالعربية وتابعوهم فى مذاهبهم الصوفية . .

والروح أرفع من النفس فى درجات الوجود ودرجات الحياة عند أكثر حكماء اليونان ، فمنهم من ينسب النفس إلى الكائنات العضوية جميعا ومنها كل نبات ينمو ويلد ويوصف ببعض صفات الأحياء ، فمعنى النفس عندهم على هذه الصفة مرادف لمعنى « الحركة الحيوية » أو معنى القوة التى تجعل أعضاء الجسم الحى مخالفة للأجسام المادية فى قابلية النمو والتوليد ، ونصيبها من الارادة أكبر من نصيب الجماد وأصغر من نصيب الروح ، فإنها لا تملك الانتقال من المكان الذى هى فيه . .

فالعقل والروح والنفس قوى حية على هذا الترتيب من الشرف والصفاء ، والإنسان له نصيبه من العقل . . ولكنه دون العقل الفعال فى جوهره وتنزهه عن المادة والهيولى ، وله روح يعلو به على سائر الموجودات ، ونفس قد يقترب بها من الكائنات التى تنمو وتلد وتزيد على درجات . .

إن هذا الاختلاف بين هذه القوى فى مصطلح الحكمة اليونانية ، وفى لغة الكتاب المبين ، يقاس من ناحية إلى كثافة المادة ويقاس من ناحية إلى المثل الأعلى ، وهو الله .

وقد يقاس الكمال فى مصطلح الحكمة اليونانية إلى الجوهر بمقدار ارتفاعه ، وإلى المادة أو الهيولى بمقدار هبوطه . .

ولكن كمال هذه القوى فى لغة القرآن مقيس إلى كمال الله جل شأنه . . فأرفعها وأشرفها ما كان أقربها إلى الصفات الإلهية وأدناها وأخسها ما كان أبعدها من تلك الصفات . .

ومن المقابلة بين هذه القوى ، كما ذكرت فى الكتاب المبين ، قد نتبين أن « الروح » هو أقربها إلى الحياة الباقية وأخفاها عن المدارك الحسية ، وأنه الجانب الذى استأثر الله بعلمه واحتجب عن أنبيائه ، لأنه سر الوجود المطلق . . لا قدرة للعقل الإنسانى المحدود على الاحاطة به ووعيه إلا بما يناسبه من الإشارة والتقريب :

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾

«سورة الإسراء ٨٥» .

أما العقل والنفس فى بيان القرآن الكريم ، فالراجح أن النفس أقربها إلى الطبع أو القوة الحيوية التى تشمل الإرادة كما تشمل الغريزة ، وتعمل واعية كما تعمل غير واعية ، وتأتى فى مواضعها من الآيات الكثيرة مرادفة للقوة التى يدركها النوم ، والقوة التى يزهقها القتل ، والقوة التى تحس النعمة والعذاب وتلهم الفجور والتقوى ، وتحاسب على ما تعمل من حسنة وسيئة . . فهى القوة التى تعمل وتريد ، مهتدية بهدى العقل أو منقادة لنوازع الطبع والهوى ، وتوضع لها الموازين القسط يوم القيامة . .

﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ﴾

« سورة الزمر آية ٤٢ »

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ﴾

« سورة الانعام آيه ٦٠ »

وإذا ذكر قتل النفس « فى القرآن » ، فإنما هو قتل الانسان أو الناس على حسب الخطاب إلى الفرد أو الجماعة :

﴿ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ﴾

« سورة المائدة آيه ٣٢ »

﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾ « سورة النساء آيه ٢٩ »

﴿ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ ﴾

« سورة البقرةآيه ٨٥ »

ولكن الانسان أعم من النفس لأنه مسئول أن ينهاها :

﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴾ « سورة النازعات آية ٤٠–٤١ »

فجملة هذه القوى من النفس والعقل والروح هى « الذات الانسانية » تدل كل قوة منها على « الذات الانسانية » فى حالة من حالاتها ، ولا تتعدد « الذات الانسانية » بأية صورة من صور التعدد لأنها ذات نفس أو ذات روح أو ذات عقل ، فإنما هى إنسان واحد فى جميع هذه الحالات ، وهى تعبيرات عنها فى جميع اللغات تقضى بها ضرورة الكلام عن كل قوة خفية تدرك أعمالها ولا تدرك مصادرها ، وعلى هذا النحو تكلم الناس عن ملكات العقل والنفس والروح ، وعما ينسب إليهما من وعى باطن ووعى ظاهر ، ومن ضمير ووجدان وخيال وحافظة وبديهة وروية إلى غير هذه الأسماء التى تتعدد للتمييز بين الأعمال ، وإن لم تتعدد فى مصدرها المعلوم أو المجهول .

وقد ذكرت النفس فى القرآن بجميع قواها التى يدرسها اليوم علماء النفس المتخصصون لهذه الدراسات فى موضوعاتها الحديثة . .

فقوة الدوافع الغريزية تقابل النفس « الأمارة بالسوء » .

﴿ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ ﴾ « سورة يوسف آيه ٥٣ »

وقوة النفس الواعية تقابل النفس الملهمة :

﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴾ « سورة الشمس آيه ٧ – ١٠ »

وقوة الضمير تقابل النفس اللوامة ، وهى النفس التى يقع منها الحساب كما يقع عليها ،وجاء ذكرها من أجل ذلك مقرونا بيوم القيامة :

﴿ لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴿١﴾ وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ﴾

« سورة القيامة آيه ١ – ٢ »

ثم ذكرت موصوفة بالابصار والعلم بمواقع الاعذار :

﴿ بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴾

« سورة القيامة آيه ١٤ – ١٥ »

وقوة الإيمان والثقة بالغيب تقابل النفس المطمئنة :

﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴾

« سورة الفجرآيه ٢٧ – ٢٨ »

وفى كل موضع من هذه المواضع ، تذكر النفس الانسانية بعامة هذه القوى . فتجمعها خاصة واحدة هى خاصة الانسان فى القرآن ، وهما كما تقدم خاصة الكائن المكلف المسئول

﴿ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ ﴾

﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ﴾
« سورة الانبياء آيه ٤٧ »

﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا ﴾ « سورة آل عمران آية ٣٠ »

﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴿٤﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴿٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴾ « سورة الانفطارآيه ١ – ٨ »

﴿ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴿٧﴾ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ ﴿١١﴾ وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴿١٣﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ﴾ « سورة التكوير آيه ٧ – ١٤ »

وجملة ما قيل فى معنى « النفوس زوجت » أنها تقرن بمقوماتها وأعمالها أو تضم إلى أشباهها وقرنائها .

فحساب النفس من حساب الإنسان ، ولكن الذات الإنسانيه أعم من النفس ومن العقل ومن الروح حين تذكر كل منها على حدة ، فإن الإنسان يحاسب نفسه لينهاها عن هواها ، ولكن الروح من أمر الخالق الذى لايعلم الانسان منه إلا ما علمه الله ، ويتوسط العقل بين القوتين فهو وازع الغريزة ومستلهم لهداية الروح .

ولعلنا نفقه من هدى القرآن ترتيب هذه القوى فى الذات الإنسانية ، وعمل كل منها فى القيام بالتكليف وتمييز الإنسان بمنزلة الكائن المسئول ..

فالانسان يعلو على نفسه بعقله ، ويعلو على عقله بروحه ، فيتصل من جانب النفس بقوى الغرائز الحيوانية ودوافع الحياة الجسدية ، ويتصل من جانب الروح بعالم البقاء وسر الوجود الدائم وعلمه عند الله .. وحق العقل أن يدرك ما وسعه من جانبها المحدود ، ولكنه لا يدرك الحقيقة كلها من جانبها المطلق إلا بإيمان وإلهام .

الأمـــانة

وردت كلمة الأمانة والأمانات فى خمسة مواضع من القران الكريم ، وكلها بالمعنى الذى يفيد التبعة والعهد والمسئولية وخصصت هذا المعنى فى آية من «سورة البقرة» بوديعة المال وما إليه . إذ قال تعالى فى سياق وثائق الديون :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُ

إلى قوله تعالى : فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَـٰنَتَهُۥ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ ﴾ «سورة البقرة آية ٢٨٢ ، ٢٨٣»

ففى هذه الآية خصصت الأمانة بما يؤتمن عليه المرء من الودائع والديون ، ولكننا لا نخرج من الآية بغير التذكير المؤكد بمعنى الأمانة العامة ، وهى الحق والفريضة ومنها -حق العلم وفريضته ، فلا يجوز لمن علم علما أن ينسى حقه :

﴿ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُ ﴾ «سورة البقرة آيه ٢٨٢»

وكل ماورد فى غير سياق الديون والودائع فالحكم فيه عام وإن ورد على سبب خاص ، لأن مناسبات النزول لا تمنع سريان الحكم والتبليغ إلى جميع المخاطبين بآيات الكتاب .

جاء فى سورة النساء :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّواْ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِٱلْعَدْلِ ﴾ «سورة النساء آية ٥٨»

قال الامام الزمخشرى فى الكشاف : «الخطاب عام لكل أحد فى كل أمانة .. وقيل: نزلت فى عثمان بن طلحة بن عبد الدار ، وكان سادن الكعبة ، وذلك إن رسول

الله صلى الله عليه وسلم حين دخل مكة يوم الفتح أغلق عثمان باب الكعبة وصعد السطح وأبى أن يدفع المفتاح إليه وقال : «لو علمت أنه رسول الله لم أمنعه» فلوى على بن أبى طالب رضى الله عنه يده وأخذه منه وفتح ، ودخل رسول الله صلى الله عليه وسلم وصلى ركعتين . فلما خرج سأله العباس أن يعطيه المفتاح ويجمع له السقاية والسدانة ، فنزلت الآية ، فأمر عليا أن يرده إلى عثمان ويعتذر إليه ، فقال عثمان لعلى : «أكرهت وآذيت ثم جئت ترفق ؟ » فقال : «لقد أنزل الله فى شأنك قرآنا» . وقرأ على الآية . فقال عثمان : «أشهدأن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله ..»

ومضى الامام الزمخشرى فى تفسير الآية إلى أن قال : « وقيل هو خطاب للولاة بأداء الأمانات والحكم بالعدل ، وقرىء الأمانة على التوحيد»

وفى الجلالين أن الآية« وإن وردت على سبب خاص فعمومها معتبر بقرينة الجمع » ..

ويقول الأستاذ الامام الشيخ محمد عبده : « إن الظاهر أنها نزلت قبل فتح مكة وأن النبى عليه السلام تلاها استشهادا»

ومن تفسيرات المتأخرين تفسير الجواهر للشيخ طنطاوى جوهرى يقول إن الأمانة «كل ما اؤتمنتم عليه من قول ، أو عمل ، أو مال ، أو علم ، وبالجملة كل ما يكون عند الانسان من النعم التى تفيد نفسه وغيره» وإن الخطاب موجه إلى الناس عامة وإلى الحكام وولاة الأمور

وكذلك الأمانات والعهد فيما ورد فى سورة المؤمنين :

﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴾ « سورة المؤمنون آية ٨ »

فهى تشمل كل ما يرعاه الانسان من عهد وذمة . وهذا هو معنى الأمانات فى سورة الأنفال ، وعلى هذا المعنى – إجمالا – يفهم كل تبليغ خوطب به الناس عامة وإن تنزلت به الآيات لمناسبة خاصة

أما الأمانة التى عرضت على الخلق عامة ، فحملها الانسان ولم يحملها أحد من

خلقه ، فهى أعم من المناسبات الخاصة والمناسبات العامة بالنسبة إلى أحكام التبليغ ، لأن الأمر فيها أمر التكوين والاستعداد بالفطرة التى فطر عليها العاقل وغير العاقل واستعد لها الحى وغير الحى ، والمخاطب بالتبليغ وغير المخاطب .. وفى هذا الموضع من القرآن الكريم ذكرت هذه الفطرة مقرونة بفطرة الخليقة كلها ، وذكرت ومعها صفة الانسان التى تخصه بين عامة المخلوقات حين يتقبل أعباءها ويحملها ، وما كان ليحملها إلا أن يتعرض لتبعاتها فهو ظلوم جهول .. ظلوم لأنه يتعدى الحدود وهو يعرفها ، وجهول لأنه يتعدى تلك الحدود وهو لا يعلمها ، وعنده أمانة العقل التى تهديه إلى عملها .. وما من كائن غير الكائن العاقل يوصف بالظلم والجهل ، لأنه لا يعرف الحد الذى يتعداه ولا تناط به معرفة الحدود . وإنما يوصف بالظلم والجهل من يصح أن يوصف بالعدل والمعرفة ، ومن يصح أن يسأل عن فعل يريده فى الحالين

قال تعالى : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾

« سورة الأحزاب آيه ٧٢ »

وذكرت هذه الفطرة الانسانية فى موضع آخر من الكتاب ، مع ذكر تكريم الانسان وولايته زمام الكائنات مفضلا على كثير من المخلوقات ، فقال تعالى فى سورة الاسراء :

﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ « سورة الإسراء آيه ٧٠ »

« وكثير ممن خلقنا » فى هذه الآية تشمل كل مخلوق لم يكن أهلا لأمانة الخير والشر أو لأمانة التكليف ، بما أودع فيه من فطرة التكوين .

* * *

ولقد وضح معنى « الأمانة » فى هذا الحكم العام وضوحا لا يقبل اللبس أو

الانحراف بالفهم عن جوهره المقصود ، وهو التكليف .. فمن لم يذكره من المفسرين بنصِّه ، ذكره بمقتضياته ومتعلقاته ، وهى ملازمة له لا تنفك عنه ..

وهذه أمثـــلة من أقوال المفسرين الذين تناقلوا الرواية بالمعنى الذى فهم من كلمة الأمانة منذ صدر الاسلام إلى القرن الرابع عشر للهجرة

قال الامام الزمخشرى المتوفى فى سنة ٥٢٨ للهجرة : « يريد بالأمانة الطاعة فعظَّم أمرها وفخَّر شأنها ، ويراد بها الطاعة لأنها لازمة الوجود كما أن الأمانة لازمة الأداء ، وعرضها على الجمادات وإباؤها وإشفاقها مجاز ، وأما حمل الأمانة فمن قولك : فلان حامل للأمانة أو محتمل لها ، تريد أنه لا يؤديها إلى صاحبها حتى تزول عن ذمته ويخرج من عهدتها »

وقال الفيلسوف الفخر الرازى المتوفى سنة ست وستمائة للهجرة : « إنا عرضنا الأمانة » أى التكليف وهو الأمر بخلاف ما فى الطبيعة ، واعلم أن هذا النوع من التكليف ليس فى السموات ولا فى الأرض لأن الأرض والجبل والسماء كلها على ما خلقت عليه : الجبل لا يطلب منه السير ، والارض لا يطلب منها الصعود ولا من السماء الهبوط ، ولا فى الملائكة ، لأن الملائكة وإن كانوا مأمورين منهيين عن أشياء لكن ذلك لهم كالأكل والشرب لنا ، فيسبحون الليل والنهار لايفترون كما يشتغل الإنسان بأمر موافق لطبعه ...»

قال الإمام الفليسوف فى تفسير حمل الأمانة . « لم يكن إباؤهن كإباء إبليس فى قوله تعالى : « أبى أن يكون مع الساجدين » من وجهين أحدهما أن هناك السجود كان فرضا ، وها هنا الأمانة كانت عرضا ، وثانيهما أن الإباء كان هناك استكبارا وها هنا استصغارا : استصغرن أنفسهن ، بدليل قوله تعالى : « وأشفقن منها » ... وقال بعضهم فى تفسير الآية إن المخلوق على قسمين : مدرك وغير مدرك ، والمدرك منه من يدرك الكلى والجزئى مثل الآدمى ، ومنه من يدرك الجزئى كالبهائم تدرك الشعير الذى تأكله ولاتفكر فى عواقب الأمور ولا تنظر فى الدلائل والبراهين ، ومنه من يدرك الكلى ولايدرك الجزئى كالملك يدرك الكليات ولايدرك لذة الجماع والأكل . قالوا :

وإلى هذا أشار الله تعالى بقوله : « ثم عرضهم على الملائكة فقال : أنبئونى بأسماء هؤلاء » ، فاعترفوا بعدم علمهم بتلك الجزئيات ، والتكليف لم يكن إلا على مدرك الأمرين . إذ له لذات بأمور جزئية فمنع منها لتحصيل لذات حقيقيه هى مثل لذة الملائكة بعبادة الله ومعرفته . واما غيره فإن كان مكلفا يكون مكلفا لا بمعنى الأمر بما فيه عليهم كلفة ومشقة ، بل بمعنى الخطاب . فإن المخاطب يسمى مكلفا كما أن المخاطب مكلف ... » .

وقال الإمام ابن كثير المتوفى سنة ٧٧٤ للهجرة : « ... عن ابن عباس : يعنى بالأمانة الطاعة ، عرضها قبل أن يعرضها على آدم فلم يطقها ، فقال لآدم : إنى قد عرضت الأمانة على السماوات والأرض والجبال فلم يطقنها .. فهل أنت آخذ بما فيها ؟ قال : يارب .. وما فيها ؟ قال : إن أحسنت جزيت وإن أسأت عوقبت ، فأخذها آدم فتحملها ... وقال على بن أبى طلحه عن ابن عباس : الأمانة الفرائض ، عرضها الله على السماوات والأرض والجبال ، ان أدوها أثابهم وإن ضيعوها عذبهم . فكرهوا ذلك وأشفقوا من غير معصية ، ولكن تعظيما لدين الله ألا يقوموا بها ، ثم عرضها على آدم فقبلها بما فيها .

« قال مجاهد وسعيد بن جبير والحسن البصرى وغير واحد أن الأمانة هى الفرائض .. ثم أورد الإمام ابن كثير أقوالا أخرى مروية بأسماء أصحابها ، وعقب عليها قائلا إنها كلها ، لاتنافى بينها ، بل هى متفقة وراجعة إلى أنها التكليف وقبول الأوامر والنواهى بشرطها »

* * *

وجاء فى تفسير الإمام السيوطى المتوفى سنة ٩١١ للهجرة : « إنا عرضنا الأمانة ، الصلوات وغيرها ، من فعلها له الثواب ومن تركها عليه العقاب ..»

وقال الإمام محمد جمال الدين القاسمى المتوفى سنة ١٣٣٢ للهجرة :

« .. عبر عنها بالأمانة تنبيها على أنها حقوق مرعية أودعها الله تعالى المكلفين ،

وائتمنهم عليها ، وأوجب عليهم تلقيها بحسن الطاعة والانقياد ، وأمرهم بمراعاتها والمحافظة عليها وأدائها من غير اخلال بشيء من حقوقها ، ومعنى الآية أن تلك الأمانة فى عظم الشأن بحيث لو كلفت هاتيك الاجرام العظام – التى هى مثل فى القوة والشدة – مراعاتها ، وكانت ذات شعور وإدراك ، لأبين قبولها وأشفقن منها ... أما قوله تعالى : وحملها الإنسان أى عند عرضها عليه ، إما باعتبارها بالاضافة إلى استعداده ، أو بتكليفه إياها يوم الميثاق – أى تكلفها والتزامها مع ما فيه من ضعف البنية ورخاوة القوة ، وهو إما عبارة عن قبوله لها بموجب استعداده الفطرى ، أو من اعترافه بقوله : بلى .. وقوله تعالى : إنه كان ظلوما جهولا اعتراض وسط بين الجمل وغايته للإيذان من أول الأمر بعدم وفائه بما عهده وتحمله ، أى إنه كان مفرطا فى الظلم مبالغا فى الجهل ، أى بحسب غالب أفراده الذين لم يعملوا بموجب فطرتهم السليمة... »

* * *

ونقل صاحب تفسير الجواهر زبدة هذه المعانى ، ثم نقل تفسير الفيروزبادى لمعنى حمل الأمانة ، إذ قال : « فأبين أن يحملنها وحملها الإنسان ، أى أبين أن يخنها وخانها الإنسان » قال : والإنسان هنا هو الكافر والمنافق ..» .

* * *

ولا نختم هذه المقتبسات قبل أن نعود إلى الاستدراك الذى بدأناها به ، وهو الاتفاق على معنى التكليف ، وأن الاختلاف على المذام التى تترتب عليه إنما هو الدليل على معنى الاستعداد الفطرى للمذام وما عداها ، أو على معنى الوقوع فى المذمة بمجاوزة حدود التكليف ، ظلما مع العلم بها وجهلا مع القدرة على التعلم والاسترشاد فى أمرها .

إلا أن معنى الاستعداد الفطرى لا يخفى إذا روجعت الآيات التى ورد فيها ذكر صفات « الإنسان » بمعنى جنس الإنسان فإنه يذكر بهذه الصفات فى مواضع كثيرة مع ذكر آيات التكوين والخلق وتصريف قوى الطبيعة ، فقد ذكر تكريم بنى آدم مع السلطان على البر والبحر والزرع والضرع والتفضيل على كثير من خلائق الله ، وذكر

ظلم الإنسان وجهله مع انفراده بالفطرة المستعدة للتكليف بين خلق السماوات والأرض ، وذكر فى غير هاتين الآيتين بقوله للخير والشر مع الايمان بالجزاء والتذكير بخلق الليل والنهار وخيرات الأرض وحساب الأفلاك ، ومن ذاك وفيه الاشارة إلى أمثاله من الآيات :

﴿ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾ وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴾ « سورة الاسراء آيه ٩ – ١٢ »

فقد ذكرت هنا فطرة الاستعداد للخير والشر مع ذكر الايمان بالجزاء وتصريف الليل والنهار ، وعجلة الإنسان على حساب العواقب وهو أهل للحساب ، حساب الشاهد والغائب ، وحساب النور والظلام وحساب السنين والأيام .

التَّكْلِيفُ وَالْحُرِّيَّةُ

من شروط التكليف طاعة وحرية . .

وهذه بديهية يغفل عنها كثير من المجادلين فى قضية القدر ، وفى قضية الايمان ، وفى قضية التكليف والجزاء ، فيقصرون النظر على شرط الحرية ويهملون شرط الطاعة كأنه مناقض للجزاء وكأنه من اللازم عقلا أن يكون الجزاء مقرونا بالحرية المطلقة ، وهى فى ذاتها استحالة عقلية بكل احتمال يخطر على البال فى فهم خلق الانسان . . فمن بحث عن الايمان بالتكليف غير ناظر إلى شرط « الطاعة » فلا جرم يضل عنه ولا ينتهى فيه إلى قرار ، لأنه يبحث عن شىء آخر ولا يبحث عن التكليف ولا عن الايمان . .

فى القرآن خطاب متكرر إلى العقل ، وبيان متكرر لحساب الانسان العاقل على الخير والشر ، مع إسناد الارادة إليه فى استحقاقه للثواب والعقاب . .

وفيه آيات صريحة تسند الارادة إلى الله ، وتقرر أنه — سبحانه وتعالى — هو الخالق المقدر الذى يقدر الهداية والضلال ، ويعطى كل شىء خلقه ويهديه وهى آيات كثيرة مقصودة بالتكرار وإن لم تبلغ فى الكثرة عدد آيات الخطاب والتكليف ، وآيات التذكير بالعقل والنظر والتمييز والتفكير .

* * *

﴿ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ « سورة البقرة آية ٢١٣ »

* * *

﴿ قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۚ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ ﴾
« سورة الاعراف آية ٢٩ — ٣٠ »

﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾
« سورة الأعلى آية ١ - ٣ »

* * *

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾
« سورة ابراهيم آية ٤ »

* * *

﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾
« سورة ابراهيم آية ٢٧ »

* * *

وكثرة الآيات بهذا المعنى تبعد عن الذهن أن يكون فيها مجال للتأويل بغير معناها الظاهر على اختلاف العبارة والمناسبة ، فمعناها الظاهر الذى لا تأويل فيه أن الله سبحانه وتعالى هو الفعال لما يريد الذى يخلق عباده ويخلق ما يعملون .

أفى هذا تناقض فى حكم العقل إذا نظرنا إلى الأمر كله نظرة المعقول ولم نقصر النظر إلى النصوص ، أو إلى واجب الاعتقاد بمقتضى هذه النصوص ؟ ..

إن الرجوع بالقضية إلى أسسها المحتملة على كل احتمال ، ينفى التناقض ، ويرينا كيف يكون هذا الاعتقاد « حلا للمشكلة » من أسسها المفروضة جميعا ، وخروجا من التناقض الذى يلزمها على كل احتمال غير هذا الاحتمال ..

وليكن الانسان روحا وعقلا خلقه الله ، أو يكن تركيبا عارضا من تراكيب المادة لم يخلقه أحد ، على قول المؤمنين بالمادة مجردة من الفكر والارادة ..

وليكن التكليف إرادة من عند الله أو يكن ضرورة من قضاء الواقع لا يرتبط بها أمر ولا جزاء ..

فكيف يتصور العقل إرادة الانسان على كل احتمال ؟

. إنه لا يتصورها إرادة مطلقة من جميع القيود ، لأن ارادة إنسان واحد تنطلق بغير قيد هي قيد لكل إنسان سواه ، وكيف يأتى هذا الانسان الواحد بإرادته المطلقة منفردا بها بين أمثاله المقيدين ؟ ..

أما أن يوجد الناس جميعا بإرادة مطلقة لكل منهم على سواء ، فهذه هى الإحالة العقلية فى الفرض والتقدير قبل الوصول بها إلى الايجاد والتحقيق..

فإذا كانت الارادة المطلقة هى إرادة الله ، فخلق الناس مكلفين بغير إرادة لهم شىء غير معقول وغير مقبول ، لأن سقوط التكليف لا معنى له فى هذه الحالة إلا أن يخلق الناس جميعا متشابهين متماثلين متساوين فى العمل الصالح الذى يساقون إليه ، كما تساق الآلات ، فلا فضل إذن للعاقل على غير العاقل ، ولاتمييز للانسان على الجماد المجرد من الحس ، فضلا عن الحيوان ..

فإذا وجب تكليف الانسان ، فالعقل الانسانى لا يوجبه إلا كما ينبغى أن يوجب على حالة واحدة لا سواها ، وهى حالة الارادة المخلوقة يودعها فيه الخالق كما ينبغى أن تودع ، وهى لا ينبغى أن تودع إلا على هذا الفرض الذ يدعو إليه القرآن ..

إن الحرية المخلوقة حرية صحيحة كما ينبغى أن تكون فى احتمال العقل المدرك المميز الذى يهتدى بإذن الله لما اختلفوا فيه

ولا يقال إن الحرية التى تخلق ليست بحرية .. فإن الحرية غير القيد سواء كانا مخلوقين أو مطبوعين ، وسواء كانا من عالم الروح أو من عالم المادة عند التمييز بينهما كما تمايز قيمة المعدن نفيسا وغير نفيس ، وكلاهما مخلوق أو مصنوع ، فإن صنعنا للآنية الذهبية وللآنية النحاسية لا ينفى نفاسة الأولى ولا يسوى بين الآنيتين المصنوعتين

وليس فى العقل شىء يسمى حرية مطبوعة تعلو على الحرية المخلوقة بالانطلاق من جميع القيود .. لأن الانطلاق من جميع القيود غير معقول ، وغير موجود ..

* * *

وإذا وجدت للمخلوقات العاقلة حرية أو وجدت لها إرادة ، فلنرجع إلى العقل لنرى كيف يتصورها العقل – أى عقل – وكيف تكون على احتمال واحد دون كل احتمال ..

إنها لا تكون سواء فى كل إنسان ، لأنها إذا امتنع فيها خلاف القوة لم يمتنع فيها

خلاف الزمن والعمر ، ولا خلاف المكان والجسد ، ولا خلاف الصغر والكبر ، ولا خلاف الحركة والجمود

وإذا امتنع فيها كل هذا الخلاف فليست هى بشىء ، إذ ليست الموجودات التى لم تتمايز ولم تتنوع بأشياء يقبلها التصور ، بل هى عدم ينقطع عن الوجود ، أو كائن لا تمييز فيه ولا تكليف ولا حسنة ولا سيئة ، ولا ثواب ولا عقاب

فإذا وجد المخلوق حرا ذا إرادة فلا وجود له إلا بهذا الاختلاف فى حكم العقل كيفما كان حكم النصوص

وإذا قضى العقل بهذا دون سواه ، فالعقل هو الذى يتصور إرادة الله وإرادة الانسان على احتمال واحد دون سواه ..

وحكم الايمان هنا وحكم العقل متماثلان إذ كان كل ما عدا حرية « الايمان » فرضا غير معقول بل غير موجود

* * *

ونحن إذن فى حل من القول بكفاية العقل وحده لتلقى خطاب التكليف إذ كان المؤمن والفيلسوف معا يذهبان بالعقل بين نقائض الفروض ، فلا يستقران على فرض ممكن أو صالح غير اعتماد التكليف على العقل واعتماد العقل على الايمان

والانكار الجزاف يوقع العقل فى نقيضين ، وهو تعطيل للعقل أفضل له من كل تعطيل ..

وإنما تساورنا الحيرة فى مسائل الايمان عامة من خطأ شائع يوهم أناسا من المتدينين والمنكرين أن الايمان على الدوام تسليم بما يأباه العقل وبما يتقبله — إذا تقبله — وهومغمض العين مكتوف اليد ، يتساوى منه النظر وترك النظر ، بلا اجتهاد ولا محاولة ولا موازنة بين ما يجوز وما يمتنع كل الامتناع

هذا إيمان يلغى العقل ويلقى به بعيدا إلى طرف التصديق بغير سؤال ولا انتظار جواب .. فإما عقل ولا تصديق ، وإما تصديق ولا عقل : ضدين لا يجتمعان ..

* * *

والفرق بعيد بين الايمان الذى يلغى العقل ، والايمان الذى يعمل فيه العقل غاية عمله ، ثم يعلم من ثم أين ينتهى وأين يبتدىء الايمان ..

إن الايمان هنا نتيجة لعمل العقل غاية جهده ، وليس نتيجة لاهماله وإبطال وجوده ..

والعقل يستطيع أن يصل إلى هذه النتيجة ، فتلزمه حجة الدعوة إلى التصديق بالغيب المجهول ..

والعقل يستطيع أن يعلم بضرورة الايمان لأن إنكار هذه الضرورة نقيضة عقلية وليس بنقيضة للدين والعقيدة وحسب ، ولا سبيل للعقل إلى الايمان بموجود كامل مطلق الكمال يصح أن يؤمن به غير الاعتراف بضرورة هذا الايمان ولزومه – منطقا – قبل لزومه لهداية الضمير

فالموجود الذى يصح أن نؤمن به هو وجود كامل أبدى ليست له حدود ..

والموجود الذى ليست له حدود لا يحيط به إدراك العقل المحدود ..

فما النتيجة اللازمة لهذه الحقيقة التى لا شك فيها ..

هى إحدى اثنتين .. إما إنكار جزاف ، وإما تسليم بحقيقة تفوق إدراك العقول ..

الانكار معناه أن سبب الايمان الوحيد ، يكون هو السبب الوحيد لكل تعطيل .

والانكار الجزاف يوقع العقل فى نقيض ، وهو تعطيل للعقل أفضل له من الانكار .

* * *

إن الموجود السرمدى الكامل المطلق الكمال هو الإله الذى نريده بالإيمان ، وهذا هو حقه فى إيمان العقلاء بوجوده وربوبيته

ولكن العقل المحدود لا يحيط بالوجود المطلق الذى ليست له حدود ..

أفيقول العقل إذن : « لا إيمان بهذا الموجود المطلق لأنه الموجود الذى يصح فى العقل أن نؤمن به ونبحث عنه ، ولا يصح فى العقول إيمان بغيره ؟ ..

العقل لا يقول هذا ..

والعقل إذا قال بضرورة الإيمان على هذه الصفة ، وبهذا الحق ، لم يكن قد ألغى عمله وأبطل وجوده ، بل هو يبلغ بذلك غاية عمله ، فهو عقل يزيد عليه إيمان ..

إن العقل الذى يزيد عليه الايمان ، هو العقل الذى خاطبه القرآن بالتكليف ، أو هو العقل المؤمن الذى تعنيه النبوة بالتذكير والتبشير ، وهو المسئول أن يستمع إلى النبى المرسل من عالم الغيب ، فلا معذرة له بعد حجة الغيب والتسليم ، وبعد حجة الشهادة والتفكير

* * *

ومع التسليم بهذا الموجود الكامل ، لا يعرف عقل الانسان تكليفا غير التكليف الذى بسطته نصوص القرآن ، فلا معنى للتكليف أصلا إن لم تكن فيه طاعة وحرية ، ولا معنى للحرية من وراء إرادة الخالق وارادة المخلوق . .

أُسْرَةٌ وَاحِدَةٌ

خيل إلى علماء القرن السابع عشر من الغربيين أنهم مطالبون بتغيير كتاب العلم من الألف إلى الياء ، وأن تعريف شيء من الأشياء بأنه من عقائد القرون الوسطى كاف لرفضه ولإعادة بحثه ثم إعادته إلى الاصطلاح بمدلول جديد .

وأول هذه التعريفات المتبدلة تعريف الانسان حسب موضعه من هذا العالم ، لأن الانسان لم يزل فى كل عصر ، وفى كل علم ، وفى كل عقيدة ، مقياسا لما عداه من خلائق هذا العالم ، بل مقياسا للعالم أجمع ، يتبدل النظر إليه كلما تبدل النظر إلى الوجود بأسره

ولم يتبدل النظر إلى مركز الكرة الأرضية من الأجرام السماوية ، حتى خيل إلى كثير من الفلكيين والجغرافيين أن حقائق السماوات والأرضين قد تغيرت لأن الكرة الأرضية مركز الانسان ..

وقد أعيد النظر إلى مكان الانسان من الخليقة كلها ، فوضعه علماء الحيوان بموضع واحد مع طبقة الأحياء التى عرفوها باسم الأوائل Primates وهى فى الذروة من طبقات الحيوان اللبون .

وأعيد « تصنيف » هذا النوع الحيوانى فذهب بعضهم بعيدا فى تقسيمه إلى عناصر ، وإلى الرجوع بكلِ عنصر منها إلى نوع من القردة الأوائل ، كما سيجىء فى الكلام على آراء النشوئيين القائلين بالتطور والارتقاء

والذين قالوا إنه نوع واحد لم يرتابوا فى تقسيمه إلى « عناصر » أو سلالات تكاد – لولا التناسل فيما بينها – أن تعتبر أنواعا مستقلة بتراكيب أبدانها وعقولها ، بل قال بعضهم إن تجارب العلم لم تثبت إمكان التناسل بينها ، ولم تنف إمكان التناسل بين بعضها وبعض أنواع القردة المشابهة للبشرية ، ويجب أن نتمهل قليلا قبل التحقق من أن السلالات الإنسانية كلها قابلة للتوالد فيما بينها، كما يتوالد ذكور الحيوان وإناثه من النوع الواحد بغير عائق للنمو فى دور الحمل ودور الطفولة ..

والذين قنعوا باختلاف العناصر والسلالات ، لم يقنعوا بالقليل من فوارق هذا الاختلاف . فمنهم من كاد يجعل السلالة « الآريه » نوعا « سيكولوجيا » يضارع النوع « البيولوجى » فى الاختلاف وفى قابلية « التفاهم » والتعامل ، و « تناسل » العواطف والأفكار

وعادوا بعد الحرب العالمية الثانية إلى التراجع السريع فى هذا « التصنيف » الذى خيل إلى أصحابه قبل جيل واحد أنه حقيقة واقعة تستغنى بالنظر عن البرهان ، وما كانوا ليسرعوا هذا الاسراع فى التراجع لولا بلاء « الانسانية » بعواقب ذلك « التصنيف » الوبيل ، لأنه التصنيف الذى سوغ لعنصر من العناصر أن يستبيح السيادة على الأمم عنوة ، وأن يستكثر حق الآدمية على تلك الأمم التى لم يدخلها معه فى قرابة الانسان للانسان ..

فمن كبار علماء الأنواع فى العصر الحاضر من يقول ، كما جاء فى كتاب «قرن من مذهب دارون» : «إن التفرقة بين عناصر النوع الإنسانى اعتساف أو توسع فى التعبير ، فقد نقسم النوع الإنسانى إلى عنصرين كبيرين يسكن أحدهما فى القارتين الآسيوية والأوربية والأمريكتين ، ويسكن الآخر فى إفريقية وبلاد الملايا والقارة الاسترالية . فإذا أردنا المزيد من الحصر فقد نقسمها حسب الألوان إلى بيضاء وصفراء وحمراء وسوداء وسمراء . ونزيد حصرا فنبلغ بها ثلاثين ، ولا يمنعنا أن نجعلهم مائتين إلا صعوبة التفاهم على هذا التقسيم » .

فحوى هذا أن فوارق العناصر فوارق أسماء وعناوين ، وأن « الانسان » أسرة واحدة على تعدد أبنائها وتعدد أقسامها واختلاف الألقاب اللغوية التى تطلق على تلك الأقسام

* * *

فحوى هذا أن القرآن قد وضع الانسان – علما ودينا – فى موضعه الصحيح ، حين جعل تقسيمه الصحيح إنه « ابن ذكر وأنثى » وأنه ينتمى بشعوبه وقبائله إلى الأسرة البشرية التى لا تفاضل بين الاخوة فيها بغير العمل الصالح ، وبغير التقوى ..

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾

« سورة الحجرات آيه ١٣ »

وقد نسميهم باصطلاح الأسماء « أمما » كثيرة كلما تباعدت بينهم المواطن وتحيزت بهم الحدود وتشعبت بينهم العقائد واللغات ، ولكنهم قبل هذا الاختلاف أمة واحدة لها إله واحد : هو رب العالمين

* * *

فإذا كانوا قد تعددوا شعوبا وقبائل كما جاء فى الآية الشريفة ، فإنما كان هذا التعدد أقوى الأسباب لاحكام صلة التعارف بينها وتعريف « الانسانية » كلها بأسرار خلقها .. فان تعدد الشعوب والقبائل يعدد المساعى والحيل لاستخراج كنوز الأرض واستنباط أدوات الصناعة ، على حسب المواقع والأزمنة ، وعلى حسب الملكات والعادات التى تتفتق عنها ضرورات العيش والذود عن الحياة فينجم عن هذا ما لابد أن ينجم عنه من تعدد الحضارات وأفانين الثقافة ، وتزداد « الانسانية » عرفانا بأسرار خلقها ، وعرفانا بخالقها ، واقترابا فيما بينها ، وتضطر إليه اضطرارا لما تحسه من اشتباك منافعها وسريان الضرر من قريبها إلى بعيدها :

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ ﴾

« سورة الروم آيه ٢٢ »

وهذا هو حكم القرآن فى وحدة بنى الإنسان ، وفى تدعيم هذه الوحدة ، بما يحسبه الناظر المتعجل بابا من أبواب الافراق والتباين ، وهو تعدد الشعوب والقبائل واختلاف اللغات والألوان :

﴿ وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾

« سورة يونس آيه ١٩ »

* * *

﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ﴾
« سورة البقرة آيه ٢١٣ »

* * *

﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴾
« سورة هود آيه ١١٨ »

* * *

﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ﴾
« سورة المائدة آيه ٤٨ »

* * *

إن هذه الوحدة فى صلة الانسان مشدودة الازر بالوحدة بين الناس كافة فى الصلة بالله – ربهم ورب العالمين – الذى يسوى بينهم ويدينهم بالرحمة والانصاف ، ثم لا يقضى بينهم فيما اختلفوا فيه إلا بقسطاس العدل ، أيهم أحسن عملا وأقرب إلى التقوى واستباق الخيرات :

﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴾ « سورة البقرة ١٦٣ »

* * *

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾
« سورة الكهف آيه ١١٠ »

﴿ إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴾
« سورة الأنبياء آيه ٩٢ »

﴿ قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾
« سورة الأنبياء آيه١٠٨ »

ولقد كان من الحق فى ذمة العلم أن يتريث علماء المقابلة بين الأديان طويلا ، عند هذه المرحلة العظمى فى تاريخ العقيدة ، وفى تاريخ الفكر ، وفى تاريخ القيم الأخلاقية ، بل فى تاريخ الحياة الانسانية من مطلعها فى ظلمات الماضى المجهول إلى هذا الأوج السامق الذى ارتفعت إليه بعد ألوف السنين ، وما كانت لترتفع إليه بعملٍ ولا عقيدة غير العقيدة فى رب واحد هو رب العالمين..

إنها لم تكن كلمة فى موضع كلمة ، ولم تكن صفة من صفات التقديس بديلا من صفة مثلها ، ولم تكن رمية من غير رام على لسان ناسك ذاهل يقول فى تسبيح المعبود كيف يقول ..

إنها لم تكن لفتة من لفتات الساعة ، تهيم بالنظر الشارد فى تيه من السحر والكهانة ، ثم لا تبالى أن تعود إلى خلفها كما تعود الى أمامها ، على غير هدى ..

لو كانت كذلك لذهبت فى غمار الكلمات والأوهام ، ولم يبال من لفظ بها أو استمع إليها أن يعيدها مرتين ..

ولكنها كانت قبلة يستقبلها الانسان على سواء لم يكن بالغه لو لم يعتدل إليه فى مطلع الطريق ، وهيهات – على غير هذه القبلة – أن ينتظم للانسان مسلك معقول إلى الرشد والضمير..

إن قيم الأعمال والأخلاق ، لا قوام لها مع الايمان برب هو رب هذا القبيل أو هذا الشعب ، بين من خلق الله من قبائل لا يختارها وشعوب لا ينظر إليها ..

وإن هذه القيم لغو عند إناس يحيق بهم الذنب وما اقترفوه ، ويهبط عليهم الغفران وما صعدوا إليه ويتقلبون بين النقمة والنعمة بغير جريرة من إثم وبغير شفاعة من توبة وبغير نية للإساءة ولا نية للتكفير .

إن العالم الانسانى كلمة غير مفهومة عند من يدين برب غير رب العالمين ، وإن قيم الأخلاق كيل جزاف حين تنقطع الأسباب بين الحسنات والسيئات وبين الثواب والعقاب ، وإن « الانسانية » الجامعة شىء لا وجود له قبل أن يوجد « الانسان المسئول »

وإنما توجد « الانسانية الواحدة » ويتساوى الانسان والانسان مع الإله الواحد الأحد ، رب الناس ورب العالمين أجمعين ، أفضلهم عنده أتقاهم وأصلحهم وأسبقهم إلى الخيرات .

وما التقوى ؟ ..

التقوى كلمة واحدة تجمع كل وازع يزع الضمير..

وأقدر الناس على أمانة التقوى ، أقدرهم على النهوض بالتبعة ، وأعرفهم بمواضع المعروف والمنكر والمباح والمحظور

والانسان التقى مرة أخرى هو الانسان « الانسان »

ما هذه التقوى التى يتعلق بها كل فضل للإنسان عند رب العالمين ؟

لو شاء فلاسفة الأخلاق لعلموا ما هى هذه التقوى ، وعلموا حقا أن موازينهم جميعا لا تحسن الترجيح بين فضل وفضل وبين قدرة وقدرة كما تحسنه هذه « التقوى » التى يحسبونها « تسبيحة » من تسابيح المعابد ، ويخيل إليهم أنها أفشل من أن تنفع العالم المحقق فى مقام الموازنة والتفضيل . . . فليس بين فاضل ومفضول قط من رجحان غير رجحان الأفضل فى القدرة على التبعة ، بما طاب لهم من ألوان التبعات .

هى موضع الرجحان للعالم على الجاهل ، وللرشيد على القاصر ، وللذكى على الغبى ، وللقادر على العاجز ، وللمهذب على الفدم ، وللمجدود على المحروم ، وللغنى على الفقير ، وللسيد على العبد ، وللحاكم على المحكوم ، ولصاحب الخلق المكين على صاحب الخلق الهزيل ، ولكل فاضل – بالإيجاز – على كل مفضول

وما من ميزان آخر ينفع فلاسفة الأخلاق فى طائفة من هذه الخصال ، إلا خذلهم فى طائفة غيرها .. بل فى أكثرها وأحوجها إلى الموازنة والتفضيل .

فليست « جملة » الانسان ماثلة فى تفضيل العلماء على الجهلاء أو الراشدين على القصر ،أو الأذكياء على الأغبياء أو غير هؤلاء على غير هؤلاء من الفاضلين على المفضولين . فإن العالم يفضل الجاهل بالعلم ولا مراء ، ولكنه قد يؤوب مفضولا عند المقابلة بينهما فى باب من أبواب الخبرة أو نزعة من نزعات الفطرة ، وهكذا كل

راجع وكل مرجوح بميزان المال أو النسب أو الخلائق والعادات ولكننا إذا حكمنا بأن إنسانا يفضل إنسانا بالقدرة على تحمل التبعات ، فهو الراجح لا مراء فى كل ميزان من موازين المفاضلة بين بنى الإنسان ، وكل قيمة تحسب للإنسان فهى داخلة فى هذا الحساب ، فإن جاز أن تهمل ويبقى الإنسان بعدها أهلا للرجحان بالتبعات فهى مهملة حقا ولو كان لها شأنها فى غير هذا الإنسان ..

﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ « سورة الحجرات آيه ١٣ »

صدق الله العظيم .. إنه لهو القسطاس الذى ينشىء « للانسانية » حقوق المساواة بين أبنائها دينا وعلما وفلسفة وشريعة وإلهاما من الوحى الإلهى وتمحيصا من البديهة الانسانية

ومكان الوحى الإلهى فى هذه المساواة أنها قد شرعت للانسان شريعتها حقا من حقوق الخلق والتكوين ، ولم تشرعها له وسيلة من وسائل الحكم وإجراء من « إجراءات » السياسة فى إبان الخطر المطبق خيفة من ثورة النفوس وتنافسا على عدد الأصوات فى معارك الانتخاب .. فان أحدا ممن خولهم القرآن تلك المساواة لم يطلبها ولم يكن لينالها قبل أن تنزل عليه من وحى رب العالمين . ولكنها لم تنشأ فى حضارة من حضارات العالم القديم أو الحديث الا كان وراءها حيلة أو وسيلة سياسية أو مراوغة تمليق وتسكين ، ولولا حروب أثينا واسبارطة ، وحروب رومة وفارس ، وحروب الأمم فى القرن العشرين ،لما سمع « ديموس » بشىء يسمى الديمقراطية ولا رضخ « الديموقراطيون » المتأخرون بشىء لذوى المعاول والمناجل أو لذوى الألوان المجندين للمصانع والمعسكرات . ولا سمع العالم بمساواة بين بنى آدم لا فضل فيها لأحد منهم على أحد بغير العمل الصالح وتقوى الله

آدم

قصة آدم عليه السلام فى القرآن هى قصة الانسان الأول . .

خلق من تراب ..وارتقى بالخلق السوى إلى منزلة العقل والإرادة .

وتعلم من الأسماء فضلا من العلم ميزه على خلائق الأرض ، من ذى حياة وغير ذى حياة . .

وقضى له أن يكسب فضله بجهده ، وأن يكون جهده غلبة لارادته وانتصارا لعقله على جسده . . .

وقصة هذه النشأة الآدمية يستوفيها القرآن فى هذه الآيات :

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴾ (سورة المؤمنون آية ١٢)

﴿ ذَٰلِكَ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٦ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَـٰنِ مِن طِينٍ ۝٧ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝٨ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ﴾ (سورة السجدة آية ٦ — ٩)

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى خَـٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ۝٢٨ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَـٰجِدِينَ ۝٢٩ فَسَجَدَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ۝٣٠ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّـٰجِدِينَ ﴾

(سورة الحجر آية ٢٨— ٣١)

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٣٠ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى

بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ
إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ
قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ
﴿٣٣﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ
ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ
شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا
فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ
وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ
﴿٣٧﴾ قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ
عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ (سورة البقرة آية ٣٠- ٣٨)

هذه قصة « نشأة آدم » فى القرآن .

وهى إحدى قصص الخلق والتكوين،وفى هذه القصص جميعا من أمر الغيب ما هو حق الإيمان ، وفيها من أمر الحياة الانسانية ما يسعه خطاب العقل ، ويتقبله بعلم منه ، يوافق الايمان ، وهو العلم بقيم الحياة أو العلم « بالقيم » العليا فى حياة الانسان وسائر الأحياء .

ولباب القيم جميعا إن الفضيلة العليا إدارة وتجربة ، وليست منحة يبطل فيها التصرف ويمتنع فيها التمييز ..

فإذا جردنا من عالم التصور مخلوقا يعقل ، ولكنه يحسن ويعجز عن الاساءة لأنه مصروف عنها ، ومخلوقا تأتى منه الحسنة كما تأتى منه السيئة لأنه لايميز بينهما ولا يريدهما ، ومخلوقا تكلفه الحسنة جهدا ويريدها لأنه يعرف فضلها ويصبر على المشقة

فى سبيلها . فنحن قد ذهبنا بالتصور غاية مذهبه لنقف عند قصة آدم والملائكة وما فى الأرض والسماء من خليقة ذات حياة أو غير ذات حياة ..

وعلينا أن نمعن بالتصور مدى آخر ، وراء هذا المدى من تاريخ الإنسان ، وذلك هو المدى الذى نطلع منه على « سياسة الخلق والتكوين » على كل صورة من الصور مرة أخرى فى احتمال العقل ، أو فى احتمال الفرض والتقدير.

إننا نعلم من سياسة الخلق إن الأجسام الحية نشأت على الكرة الأرضية قبل نشأة الانسان ، فكادت أن تبلغ مبلغ الجبال الصغار وثقل بعضها وزنا حتى أربى على مئات الأطنان ، ثم فنيت لأنها قصرت عن ملكة التدبير التى تروض بها هذه الأجسام الضخام . ولسنا نعلم شيئا بغير السماع والالهام عن خلائق العقل التى تفردت فيها العقول عن الأبدان ..

والعقل الانسانى يأبى أن يصدق إن هذا الكون خلو من معدن العقل إلا أن ينبت عرضا فى جزء من مادة الأرض ، بعد نشوء الإنسان .

أقرب إلى تصديقه – ولا نقول أقرب إلى إيمانه وكفى – أن سياسة الخلق والتكوين تصرفت فى مقادير العقول ، كما تصرفت فى مقادير الأبدان إلى غاية ما تبلغه من الضخامة بمعزل عن العقل وعن فضائل التمييز.

تلك سياسة الخلق التى أذنت للكائنات العاقلة فى عالم الروح أن تعلم مداها من الرقى فى معارج الحياة ، وأن تتلقى الأمر بالسجود للقيمة الجديدة التى تنفرج عنها أستار الغيب ، ويودعها الخالق هذا الكيان الموسوم بالإنسان ..

ومن بديهة الايمان أن تدع للدين حقه فى تبليغ هذه النشأة إلى المؤمنين بالغيب ، وأن تدع للعقول حقها فيما وسعت من علم ، وفيما وسعها من تعليم .. إن النشأة الآدمية فى القرآن هى طريق الحياة من الأرض إلى السماء ، أو هى طريق الكائن الحى من المادة الصماء إلى الخلاق الحكيم .

ولا يأبى القرآن على مؤمن به أن يرسم مسلك الحياة من المبدأ إلى المصير على هذا الطريق الخفى البين ، فإنه لعلى الجادة فى كل مكان يردها إلى الأرض ولا يقطعها عن الله .

الكتاب الثانى

الإنسان
فى مذاهب العلم والفكر

عُمَرُ الإنسَانْ

نبدأ هذه الفصول عن الإنسان فى مذاهب العلم والفكر بفصل عام عن عمر الإنسان فى هذا العالم ، لأن تقدير الزمن الذى مضى على ابتداء حياة النوع الإنسانى مرتبط بكل بحث عن أصل الإنسان فى جميع المذاهب ، ولا سيما مذهب النشوء أو التطور ، وهو أول مذهب يتعين البحث فيه واستقراء ما يقال عنه ، تأييدا وتفنيدا ، فى تقرير مكان الانسان من هذا الوجود ومكانه بعد ذلك من عامة الأحياء .

ونرى أن هذا المذهب أول المذاهب التى يتعين بحثها هنا ، لأنه أحرى أن يسمى « مذهب مذاهب » وأن يدرس على سعة تخرجه من حدود المذهب الواحد الذى يقصر على موضوعه الأصيل ، فإنه ما كاد يظهر وينتشر بين أصحاب الدراسات حتى عاد هؤلاء يحسبون أنهم مطالبون باعادة النظر فى موضوعاتها للمقابلة بين قواعدها ومقرراتها قبل انتشار مذهب التطور وبعده .. فكتبوا عن تطور العلم وتطور الفن وتطور الأدب وتطور السياسة وعن أبواب شتى من الدراسات ، يقال فيها اليوم غير ما قيل بالأمس تبعا للقوانين أو النظريات التى جاء بها النشوئيون ..

وسنبسط القول فى هذا المذهب على وجه خاص على قدر المستطاع فى حيز هذه الرسالة ، لأنه — على كل فرض من الفروض — دعوى فى قضية الإنسان يستمع إليها ولا تهمل كل الأهمال ، ولو اعتقد الناظر فيها — كما نعتقد — أنها تقوم على آراء لا تلزم منها النتيجة التى وصل إليها النشوئيون لزوم الحتم ، ولكنها معلقة إلى حين . ولنبدأ بالكلام فيما يلى عن عمر الإنسان بتقدير العلوم العصرية ، ولا تناقض بين شىء منه وبين شىء مما ورد فى آيات القرآن .

لم يوجب القرآن على المسلم مقدارا محدودا من السنين لخلق الكون أو لخلق الانسان ، ولا نعلم أن ديانة من الديانات الكبرى التى يؤمن بها أبناء الحضارة عرضت لتاريخ الخليقة غير الديانتين البرهمية واليهودية .

والديانة البرهمية لا تقدر عمر الكون ، أو عمر الحياة ، بمقدار محدود من

السنين ، لأنها تقول بالدورة الأبدية التى تتكرر فيها حياة الانسان مع حياة الكون بغير أجل معروف فى البداية أو النهاية . وعند البرهميين أن الكون فلك كبير ، يتم دورته المتكررة مرة فى كل تلثمائة وستين ألف سنة .وقد يزاد هذا القدر أو ينقص فى تفسيراتهم الدينية على حسب المقادير المضاعفة عندهم للدورة الشمسية ، وهى عندهم مثل صغير للدورة الكونية الكبرى ، كلما انتهت دورة بدأت دورة أخرى من دورات الوجود السرمدى عودا على بدء إلى غير انتهاء

أما المصادر اليهودية ، فهى على حسب تحقيق الفقية الكبير « جيمس يوشر » المتوفى سنة ١٥٩٦ ، تدل على ابتداء الخليقة فى ٢٦ أكتوبر سنة ٤٠٠٤ قبل الميلاد . وقد شرح أسانيده التى بنى عليها هذا التقدير فى كتاب ضخم سماه السجلات القديمة والعهد الجديد Annales Veteris Novi Testamenti

وأضيف هذا التاريخ إلى نسخة التوراة التى ترجمت على عهد الملك « جيمس » وبهامشها تواريخ الحوادث المذكورة فى متونها .

وظل هذا التاريخ معتمدا فى طبعات التوراة المنقولة عن هذه النسخة الى العهد الأخير . . ثم أجمع شراح الكتاب العصريون ، يهودا ومسيحيين على تقدير السنين والأيام التى وردت فى صدد الكلام عن الخليقة بمقادير غير مقادير السنين والأيام الشمسية ، واستندوا إلى أن اليوم الشمسى وإن السنة الشمسية تساوى مدة دوران الأرض حول الشمس مرة واحدة ، فلا يمكن أن يكون اليوم من أيام الخليقة الستة يوما شمسيا لأن الشمس نفسها خلقت فى اليوم الرابع كما جاء فى الاصحاح الأول من سفر التكوين . .

« وقال الله : لتكن أنوار فى جلد السماء لتفصل بين النهار والليل وتكون لآيات وأوقات وأيام وسنين ، وتكون أنوار فى جلد السماء لتنير على الأرض ، وكان كذلك . فعمل الله النورين العظيمين : النور الأكبر لحكم النهار ، والنور الأصغر لحكم الليل ، والنجوم وجعلها الله فى جلد السماء لتنير على الأرض ولتحكم على النهار والليل وتفصل بين النور والظلمة . ورأى الله ذلك أنه حسن . وكان مساء وكان صباح يوما رابعا »

* * *

وانقضى القرن السابع عشر والثامن عشر دون أن يعرض لعلماء الغرب ، من مباحث الدين أو العلم ، شئ يدعوهم إلى تقدير عمر للخليقة يزيد على ستين قرنا بحساب السنين الشمسية ، ثم تتابعت الكشوف عن ظواهر الطبيعة كيفما تناولتها العلوم الحديثة ، فتضاءلت هذه القرون الستون حتى أصبحت كلمحة البصر الخاطفة بالقياس إلى أعمار الكائنات السماوية والأرضية ، بعد أن عرف العلماء حساب الزمن بالسنة الضوئية وتحققوا من النظر اليقين إلى بعض الكواكب أنهم يرونها الآن بعد أن مضت على انطلاق الشعاع منها ملايين من السنوات الشمسية ، وتبين من تحقيق أعمار بعض الأشجار أنها نبتت قبل ميلاد المسيح وقبل دعوة موسى الكليم وإبراهيم الخليل ، وتبين من بقايا النبات المتحجر أنه كان ينمو على الأرض قبل مئات الآلاف من السنين ، وقامت تقديرات العلم فى قياس أعمار هذه الكائنات على معايير محققة لا تقل ثبوتا عن قياس الساعات بحركة الرمل أو الماء فى الساعات الرملية والمائية ، لأنهم يبنون هذه التقديرات على المعلوم المحقق من سرعة الاشعاع المعدنى أو مدى الوقت اللازم لتحول العناصر ، وأمثال ذلك من المعايير التى تصلح للقياس عليها كما يصلح العلم بمقدار الرمل أو الماء ومقدار الوقت اللازم لانصبابه فى صندوقه قياسا لساعات النهار والليل ، وكما يصلح العلم بحركات الكواكب قياسا للسنين والشهور

وقد اشتركت العلوم جميعا فى اتخاذ مقاييسها لتقدير أعمار الكائنات فقاس النباتى عمر الشجرة بحلقات جذوعها ، وقاس الطبيعى أعمار البحار بمقادير الملح الذى أفرغته الأنهار فيها ، وقاس عالم الطبقات الأرضية أعمار الصخور بتحول المعادن أو استقرار الرواسب ، أو باشعاع العناصر أو بالأحافير المتحجرة من بقايا النبات والحيوان ، وكلها معايير معقولة توغل بأعمار بعض الكائنات رجوعا إلى دهور محسوبة بمئات الألوف من السنين ، وتمعن فى القدم حتى تحسب بمئات الملايين .

* * *

وأحدث المقاييس العلمية التى تقاس بها عصور ما قبل التاريخ مقياس الكربون المسمى بكربون (١٤) تمييزا له من الكربون (١٢) المسمى بمقدار وزنه الذرى . . فان العالم الأمريكى « ويلاردلبى » Willard Libby صاحب الدراسات

المأثورة فى الطبيعيات الذرية ، وجد – قبيل منتصف القرن – أن نصف ذرات هذا الكربون تتحلل فى الأجسام الحية خلال خمسة آلاف وخمسمائة وثمان وستين سنة ، يعمل فيها حساب فرق التقدير بنحو ثلاثين سنة إلى الزيادة أو النقصان ، فاذا جمعت بقايا العظام أو الفحم الحجرى ، فمن الممكن وزن ما فيها من كربون (١٤) وتقدير الزمن الذى انقضت فيه حياة الكائن الحى الذى تخلفت عنه تلك البقايا على حسب المقدار المتحلل من ذلك الكربون . فإذا كان هذا المقدار نصفا ، فقد مات ذلك الكائن الحى قبل خمسة آلاف وخمسمائة وثمان وستين سنة ، وإذا كان ذلك المقدار ربعا فقد انتهت حياته قبل نحو أحد عشر ألفا ومائة وست وثلاثين سنة ، ويزيد عدد القرون كلما نقصت نسبة البقية الباقية من الكربون (١٤) بالمقابلة بينه وبين الكربون (١٢) مع ذلك الفارق القليل الذى يحسب فيه الحساب لخطأ التقدير . .

وبهذه المقاييس الكثيرة التى تضبط حساب القرون كما يضبط حساب الأيام والليالى بالساعات الرملية والمائية – قفل تاريخ الانسان على الأرض راجعا إلى ألوف القرون بدلا من العشرات أو الآحاد ، ووضع علماء الطبقات والحفائر مقادير الأعمار المتطاولة لكل طبقة من الطبقات الأرضية وجدت فيها بقايا الأجسام البشرية وقدروا للطبقة الحجرية ثلاثة أدوار بين عليا ووسطى وسفلى ، يتراوح تاريخها بين خمسة وسبعين ألف سنة وستمائة ألف سنة ، وتنسب إلى الطبقة العليا بقايا الإنسان التى وجدت فى الأقاليم الغربية من القارة الأوربية ،وإلى الطبقة الوسطى بقايا الانسان التى وجدت فى أواسط القارة ، وأقدم من هذا بقايا الانسان التى وجدت فى القارة الآسيوية بين الصين وبلاد الملايا ، ومثلها فى القدم أو أقدم منها بقايا الانسان فى أقاليم الجنوب الأفريقية

وآخر البقايا الانسانية التى وجدت فى القارة الافريقية جمجمة ، وجدها الدكتور « ليكى » Leakey فى شهر يوليو سنة ١٩٥٩ – ووجد معها بقايا حيوانات يظن الدكتور أن صاحب الجمجمة كان يصطادها لطعامه ، ويستخدم فى صيدها أسلحة حجرية وجدت آثارها على مقربة منه ، وقد استقرت هذه الحفائر تحت مجرى

« أولدفاى » بتنجانيقا وسمى هذا الانسان باسم علمى معناه الانسان الزنجى Zinianthropus ولقبوه فى الدوائر العلمية بلقب «كاسر الجوز» لضخامة فكه وضروسة ، ويقدرون تاريخه بنحو ستمائة ألف سنة على حسب قياس الزمن بتلك المقاييس المتعددة ، ومنها حساب زمن التحجر وزمن تكوين الطبقة وزمن التطور فى تركيب العظام وزمن البقايا التى تخلفت من عظام الفك والأسنان.

وليس من المحقق أن يوغل التاريخ فى القدم إلى كل تلك الألوف من السنين ، ولكن المحقق أن إيغالها إلى تلك الدهور كلها أو ما هو أقدم منها ليس بالأمر المستغرب فى أقيسة الزمن أو أقيسة أعمار الحياة الانسانية ، بعد وضوح الحقائق الثابتة عن قدم تاريخ الخليقة من ظواهرها الأرضية وظواهرها السماوية على السواء.

والمحقق كذلك أن الانسان القديم الذى دلت عليه تلك البقايا ، كان يستخدم الآلات الحجرية ، ويستعين فى كفاح أعدائه من الحيوانات الضارية بنصيب من الذكاء لم يكن معهودا فى حيوان منها ، فهو فى أقدم عهوده مميز بالعقل والنطق وهما صفتان إنسانيتان لا تنفصلان عن استخدام الآلة ولا عن الخاصة المميزة للحيوان الناطق من اعتدال القامة ومطاوعة اليد للارادة فى حالات المشى والوقوف ، ولولا ذلك لما استطاع الإنسان أن يستخدم السلاح وأن يصنعه لإصابة الحيوانات الضارية من بعيد . . .

* * *

أما الانسان فى مجتمعات الحضارة فلم ينكشف ، بعد ، أثر يدل على تاريخ له قبل عشرة آلاف سنة أو نحوها ، ونعنى بانسان الحضارة ذلك الانسان الذى عرف الشريعة ونظام المعاملة وسخر الحيوان كما سخر العناصر الطبيعية فى مصالحه المشتركة . وقد وجدت فى وادى النيل آثار الانسان المقيم الذى كان يستخدم الأدوات الحجرية ، ويعول على محاصيل الأرض فى تدبير طعامه وأسباب معيشته ، ولكن المتفق عليه أن هذا الانسان لم يكن يعرف الكتابة ولم تكن نقوشه على الحجر من قبيل الرموز المصطلح عليها لنقل الأفكار وتسجيل الوقائع ، ولكنها أقرب إلى الطلاسم السحرية أو إلى أشكال الزينة ، وإنها – على هذا – لتعتبر مقدمة لازمة لنشأة المزايا التى تحقق الصلاح وتكفل لصاحبها الدوام فى ميدان التنازع

* * *

وليس لنا أن نأخذ مأخذ اليقين بروايات الأقدمين عن ماضيهم البعيد فى حياة الثقافة والحضارة الرفيعة ، ولكنها روايات لا تهمل فى صدد الكلام عن تاريخ الانسان وليس لنا كذلك أن ننقضها بغير دليل.

كان هيرودوت – الملقب بأبى التاريخ – يعيش فى القرن الخامس قبل الميلاد ، وهو يروى فى كتابه الثانى عن كهنة الفراعنة أنهم يقدرون تاريخ الدولة من عهد ملكها الأول بثلثمائة وواحد وأربعين جيلا ، أى بنحو أحد عشر ألف سنة على حساب ثلاثة أجيال لكل قرن واحد ، ويعتقد بعض الباحثين المحدثين أنه تقدير غير مبالغ فيه ، وأن مواقع بعض الهياكل تدل على انقضاء زمن كهذا الزمن قبل عصر هيرودوت فى مراقبة فلكية سمحت بملاحظة الفرق بين السنة الشمسية فى التقويم القديم وهذه السنة الشمسية فى تقويمنا الحديث ، وهو فرق يبلغ سنة كاملة كل ألف وأربعمائة وإحدى وستين سنة ، ولا سبيل إلى إدراك هذا الفرق فى أمة تجهل الرصد والتسجيل وتعجز عن مراقبة هذه الفروق دورا بعد دور فى تاريخها الطويل [1] .

* * *

ومما يذكر ، ولا يهمل ، فى صدد الروايات المتواترة عن الأمم الدارسة رواية أفلاطون عن القارة المفقودة التى سماها القارة الأطلسية ، وذكرها فى كتابين من كتبه المحفوظة هما كتاب « تيماوس » Timaeus و« كريتياس »Critis وروى من أخبار أهلها أنهم تقدموا فى الحضارة تقدما لم يدركه أحد من بعدهم ، ثم غاصت بأهلها تحت الأرض على أثر زلزال من زلازل العصور الغابرة التى يظهر من أخبار الأقدمين أنهم كانوا يحسبونها من عوارض الطبيعة الدائمة أو عوارضها الدورية ، وقد بحث طلاب الأسرار فى مجاهل الماضى المدثور عن موقع القارة المفقودة فرجح عندهم أنها كانت فى موضع المحيط الأطلسى بين شماله ووسطه ، وأنها زالت فى إحدى الكوارث الكونية التى قدروا لوقوعها سنة ٩٥٦٤ قبل الميلاد فلم يبق منها إلا بعض الجزر البركانية .

---

(١) يرجع إلى كتاب فيلوكفسكى Velikovsky عن العوالم المتصادمة .

وقد كان أفلاطون أحد رواة هذه الأسطورة ، فلقيت من عناية الاخلاف اللاحقة ما لم تلقه أساطير عصره ، وجاء فرنسيس باكون فيلسوف العلوم التجريبية بعد القرون الوسطى فسمى أحد كتبه باسم الأطلسية الجديدة ، ووصف فيه العالم الجديد كما يتمناه

إلا أن الغالب على المحدثين أن يتبعوا فى هذه الرواية منهجهم «التقليدى» فى كل رواية تخلفت من العصور الأولى وانتقلت إلى العصور الأخيرة مع أساطير الأقدمين ، فحسبوها جملة واحدة فى عداد تلك الأساطير ، وهو منهج كانت له مسوغاته القوية فى مرحلة الانتقال بين ظلمات القرون الوسطى ومطالع الكشف والتحقيق عند أوائل القرن التاسع عشر ، ولكن استقرار عصر الكشف والتجربة العلمية خليق أن يوطد الاقدام على بر الأمان ويسمح للباحث بالتردد فى الانكار كما سمح له من قبل بالتردد فى القبول ، بل بالتعجل إلى الرفض بغير حجة ولا موازنة بين مسوغات التكذيب ومسوغات التصديق ، ولعل الكشوف الكثيرة التى تعاقبت خلال القرن التاسع عشر وتبين منها أن روايات الأقدمين لم تكن كلها من قبيل الأساطير قد أقنعت أكثر الباحثين بأن الرفض بغير برهان أضر بالبحث من القبول بغير برهان ، لأن الذى يجزم برفض خبر قديم إنما يحكم بالاستحالة على الممكنات الكثيرة التى تجوز ولا تمتنع فى العقول ، وخير منه – عقلا – من يقبل شيئا ممكنا ، وإن لم يقم البرهان على وقوعه فعلا كما وقع غيره من الممكنات .

وإذا حق لهذه « الأسطورة » أن تشفع لها رواية أفلاطون ، فقد يكون من شفاعاتها الحديثة التى تزكى تلك الشفاعة الموقرة أن المحيط الأطلسى ينبيء الباحثين المحدثين عن صدوع واسعة يدل عليها تقابل الخطوط بين شواطئه الشرقية وشواطئه الغربية ، وقد تدل عليها أغوار القاع وسلاسل المواقع المنهارة على امتداده طولا وعرضا بإزاء قارات العالم القديم والعالم الجديد ، وهذه كلها كشوف متأخرة لم يعرف عنها الأقدمون شيئا حين تناقلوا أخبارهم عن قارتهم المفقودة

على أن الكشوف الأثرية فى السنوات الأخيرة قد خرجت بأساطير القارات المفقودة من عالم الأسرار إلى عالم الآثار وطالعتنا باسم قارة جديدة فى محيط آخر غير

المحيط الأطلسي ، ولكنه يقابله فى الموقع ويشبهه فى الظواهر والأغوار ، وتلك هى قارة« مو » Mu التى ألف عنها الكولونيل جيمس شرشوارد chruchivard كتابيه باسم « قارة مو المفقودة » و« أبناء مو » وروى فيهما أخبار حضارات سابقة لعصور التاريخ يرجع بها قدما إلى أكثر من عشرين ألف سنة قبل الميلاد . ويعزز دعواه برموز وإشارات يفسرها بمعانيها اللغوية ، ولا يقنع باعتبارها من أشكال الزينة ونقوش البناء ، لأنه يرى أن الرسوم الهندسية لا تبلغ هذا المبلغ عند أمة تجهل الكتابة ونقل الأفكار بالعلامات والخطوط .

* * *

وعلى عهدة المؤلف ننقل خلاصة كتابه عن القارة المفقودة مقتبسة من مقدمته لكتابه الآخر عن « أبناء مو » وفيها يقول ما فحواه

« إن قارة « مو » كانت قارة واسعة تقع فى المحيط الهادى بين أمريكا وآسيا ، ويقع وسطها إلى الجنوب قليلا من خط الاستواء .. ويقدر طولها من الشرق إلى الغرب بستة آلاف ميل ، وعرضها بين الشمال والجنوب بثلاثة آلاف ميل ، وقد دهمها زلزال عنيف قبل نحو اثنى عشر الف سنة فابتلعتها لجج المحيط وغاص معها إلى قراره نحو ستين مليون إنسان ، ويستدل على وجود تلك القارة بالآثار الكتابية والروايات المتوارثة التى يتداولها أناس من أبناء الهند والصين وبورمه والتبت وكمبوديا وأواسط أمريكا ، ومنها نقوش ورقوم شوهدت فى جزر المحيط الهادى ، تؤيدها روايات الاغريق والمصريين الأقدمين وتتوافر حولها الأساطير بين بقاع الدنيا المترامية على أرجاء الكرة الأرضية . وقد خطا الانسان خطواته الأولى فى سبل التقدم والمعرفة قبل نحو مائتى ألف سنة ، وانتهى قبل نكبة القارة بالزلزال إلى شأو من الحضارة لم نصل إليه حتى الآن فى حضارتنا الراهنة ، لأن حضارتنا لا تدعى لها عمرا أطول من خمسة آلاف سنة وهى مرحلة قصيرة بالقياس إلى الشأو الذى يدركه الانسان العاقل بعد ممارسة الحضارة والصناعة مائتى ألف سنة ، وليست حضارات الأمم الشرقية العريقة من الهند إلى بابل ومصر إلا ومضات الرماد المتخلف من حضارة تلك القارة الغريقة ، وقد فسر المؤلف ما عثر عليه من الرموز والرقوم واعتمد فى بعض تفسيراته

على كهان المحاريب البرهمية وعلى حلول الطلاسم التى انتهى إليها قراء الكتابات القديمة على آثار المغرب والمشرق ، ومنها آثار المايا وآثار الفراعنة ويقول المؤلف انه لم يأت برأى من عنده فى كل ما بسط القول فيه من أخبار تلك القارة ، ولكنه رأى ما يراه كل قارىء لتلك النقوش والرقوم يتقبل طريقة حلها كما شرحها مشفوعة بأسانيدها وبالأدلة التى تؤكد معانيها ، وقد ثبت له من تلك الأدلة أن بعضها يمتد فى الأزمنة الماضية إلى سبعين ألف سنة ، ولكن الآثار التى نقلت من قارة «مو» نفسها جد قليلة ، وغاية ما أمكن العثور عليه من الآثار المتصلة بها أثران رمزيان مصنوعان من البرنز ، يرجع تاريخهما على الأقل إلى نحو عشرين ألف سنة إذا كانا من مخلفات الحضارة التى بقيت على أرض القارة الآسيوية بعد الزلزال وقبل الطوفان وقد يرجع إلى آماد أبعد من ذلك جدا إذا كانا من مخلفات «مو» التى نقلت إلى بلاد القارة الآسيوية ..»

* * *

والجديد فى قصة هذه القارة كما رواها مؤلف كتابى القارة المفقودة وأبناء « مو » أنها تحدثنا عن الانسان « المتدين » فى تلك العصور السحيقة ، وأنها تصف لنا هذا الانسان « مخلوقا » مميزا بين جميع المخلوقات ، وتربط بين خاصة التدين وبين هذه المزية التى تفرده بين أنواع الأحياء ، على خلاف المفهوم من مذاهب النشوئيين الذين جعلوا الانسان نوعا من هذه الأنواع بغير مزية تفصله عنها سوى مزية الارتقاء ، وقد ألم المؤلف بمشابهات عارضة بين مجمل الكلام عن الخليقة ، وعن نكبات الانسان فى العصور الغابرة ، كما جاءت فى الآثار الأولى وفى كتب الأديان الباقية ، وغاية ما نقوله عن توكيدات المؤلف وتخميناته معا أن مسألة الانسان المتحضر قبل عصور التاريخ ليست مما يهمل فى سياق يعرض لتاريخ النوع الانسانى ولمكان الانسان من كتب الدين

الإنسان ومذهب التطور

القائلون بالتطور فرقتان : منهم من يعمم تطبيقه على الكون كله بما اشتمل عليه من مادة وقوة ، ومنهم من يقصره على عالم الكائنات العضوية التى تشتمل على النبات والحيوان والإنسان ، ولا تحيط بما عداها من الموجودات غير العضوية ..

والقائلون بالتطور العام يواجهون مسألة الخلق ،أو مسألة الإيمان بالخالق ، فى كلامهم عن العالم وعن القوى المسيرة له من خارجه أو داخله ، ولامناص لهم من التعرض لهذه القوى برأى من الآراء ..

فالذين يقصرون التطور على الأحياء ، يرجعون فى تعليل تطورها إلى عوامل الطبيعة وما تشمله من مؤثرات البيئة والمناخ وموارد الغذاء ووسائل الحصول عليه ، ولايضطرهم القول بهذا التطور إلى التعرض لما وراء هذه العوامل الطبيعية باثبات أو انكار .. فقد تكون عوامل الطبيعة فى مذهبهم خاضعة لقوة عالية فوق الطبيعة ، تودعها ما تشاء من النظم والنواميس ، ولا يتناقض القول بالنظم الطبيعية عندهم والقول بما وراء الطبيعة ، على حسب العقائد الدينية أو المذاهب الفلسفية .

أما تعميم التطور على الكون كله ، فلا بد أن يسبقه السؤال عن القوة التى تملك تسيير هذا الكون منذ الأزل إلى غير نهاية ، ولابد للقائل بتعميم التطور من الفصل فى مسألة البداية والنهاية .. وهى لا تنفصل عن مسألة الخلق والخالق فى جملتها .

فإذا كان تطور الأحياء يرجع إلى عوامل البيئة الطبيعية ، فماذا خارج الكون كله يرجع إليه تطور الكون منذ البداية الأولى ؟ وكيف يتفق القول بالتطور والقول بالأبدية التى لا أول لها ولا آخر إذا قيل أن الكون موجود بلا ابتداء ولا ختام ؟

إن أشهر القائلين بالتطور العام هربرت سبنسر (١٨٢٠ – ١٩٠٣) الذى عرف التطور بأنه انتقال من البسيط إلى المركب ، وقال عن تطور الحياة أنه توفيق دائم بين مطالب البنية الحية وبين ظروفها الطبيعية ، ولهذا يحدث التغير للبنية ثم يحدث لها التوسع والامتداد ، وتترقى فى وظائفها تبعا لاتساعها وامتدادها ..

وقد عرضت له قضية البداية الأولى فلم يدخلها فى حدود الطبيعة ولم يخرجها من حدودها .. ولكنه قسم الحقائق الكونية إلى قسمين بالنسبة إلى المعرفة الإنسانية : أحدهما حقائق الأشياء فى ذواتها وفى أصولها الأولى وهى القسم الذى لايدرك ولا يتقبل الإدراك بالأساليب العلمية ، والآخر حقائق الأشياء فى ظواهرها المحدودة وهى التى يستطيع عقل الانسان أن يدركها بالاستقراء والاستدلال ، ويظهر فيها عمل التطور إما باستخراج الأحكام العامة من المشاهدات المتفرقة ، أو بتفسير هذه المشاهدات على حسب تلك الأحكام .

وأصحاب هذا الرأى من القائلين بالتطور العام – على ترددهم فى مسألة الأصول الأولى – لايتجاهلون هذه الأصول ، ولا يفوتهم أن القول بالتطور العام يوجب عليهم أن يرجعوا إلى المؤثرات الكونية التى تصدر منها الآثار المتغيرة وتفسر لنا أسبابها ، وأن إطلاق القول بالتطور من مبدأ الكون غير تخصيص التطور بالكائنات العضوية وتفسيره بالرجوع إلى العوامل التى تحيط بتلك الكائنات وتفعل فعلها أو تنفعل معها بمشاركتها ، ولكن أصحاب التطور العام على مذهب سبنسر يسلمون بتلك المؤثرات الكونية ويتركون البحث فيها عجزا عن الوصول إلى النتيجة ، فيقفون بالمعرفة الانسانية عند الآثار التى يدركونها ويحجمون عما وراء ذلك ، فيسلكونه فى عداد « المجهولات» التى لاتدرك بالحواس والعقول ..

ويبقى أصحاب التطور العام الذين لايذهبون مذهب سبنسر فى تقسيم المعرفة الانسانية بين مدرك وغير قابل للادراك ، وهو قبل ذلك مذهب الفيلسوف الايقوسى هاملتون (١٧٨٨ – ١٨٥٦) ومذهب الفيلسوف الألمانى عمانويل كانت (١٧٢٤ – ١٨٠٤) فى الظواهر والحقائق أو فى الأشياء كما تحس وتدرك ، والأشياء فى ذواتها ..

فأصحاب التطور هؤلاء فريقان ، يقفان من مسألة الأصول الأولى موقفين متقابلين متناقضين .. وتفسير هذه الأصول عند أحدهما – وهو فريق المؤمنين – أنها من صنع الخالق الحكيم ، وأن القوة التى تصدر عنها آثار التطور فى الكون كله منذ بدايته لابد أن تكون «قدرة» فوق الطبيعة وفوق الكون تودعه ما تشاء من النظم والنواميس .

والفريق الآخر – وهو فريق الماديين المنكرين – يكتفى من التفسير بذكر العوامل التى ينسب إليها التأثير واعتبارها طبيعة فى المادة لا تفسير لها إلا أنها وجدت هكذا ، ولا يمكن أن توجد على صورة أخرى غير التى وجدت عليها .

فإذا احتاج الفيلسوف المادى إلى القول بالحركة الدائمة ، قال إنها عادة المادة فى أصل تكوينها ، وإذا لزمه القول بالتغير مع الحركة قال إن المادة المتحركة متغيرة بطبيعتها ، وإذا لزمه بعد ذلك أن يجعلها متغيرة من البساطة إلى التركيب ومن النقيض إلى النقيض .. فهذا القول عنده هو وصف للواقع وتفسير له فى وقت واحد ، وكذلك يفسر التقدم والارتقاء وهما يستلزمان الغاية المرسومة والنتيجة المقصودة ، ولكن الفيلسوف المادى يحسب أنه فرغ من التفسير بوضع كلمة « الضرورة » هنا موضع كلمة الغاية المقصودة .. وليس عند الفيلسوف المادى تفسير لهذا التعدد الهائل فى ظواهر الكون وأجزائه ، مع ابتداء تطوره من وقت واحد أو مبدأ واحد ، وجريان هذا التطور على مادة واحدة وقوة واحدة . وليس عنده معنى لهذا التقدم أو غاية يتقدم إليها غير انقضاء أجل الكون مرة بعد مرة ، كلما انقضت دورة من دوراته الأبدية بين التأخر والتقدم ، أو بين الهبوط والارتقاء ..

وكل هذه الفلسفة المادية تتلخص فى كلمة تشبه كلمة الطفل حين تسأله عن سبب شئ فيقول لك « هكذا » بغير سبب ، أو تشبه كلمة الجاهل الذى تسأله عما وقع أمامه فيقول لك : « وقع وحده » ولا تفهم منه علة لوقوعه أوضح من قول المادى الفيلسوف إن المادة تتغير لأنها متغيرة ، وتتقدم لأنها متقدمة ، وتنتقل من البساطة إلى التركيب ومن النقيض إلى النقيض لأن ذلك كله من طبائعها .. ولولا أن المادى الفيلسوف يقرر مذهبه فى التطور ليصل منه إلى نتيجة فى المستقبل يوجبها على الناس وعلى الزمن لتساوى تفسيره للتطور العام وسكوته عن تفسيره .. ولكنه لو اختار أن يتنبأ بنتيجة تناقض تلك النتيجة ، واختار أن يفسر ذلك أيضا بأنه طبيعة من طبائع المادة وطور من أطوارها لما كانت حجته فى إحدى النبوءتين بأقوى من حجته فى الأخرى .

* * *

والقائلون بتطور الكائنات العضوية ، ممن يقصرون القول عليها ولا يعممون تطبيق التطور على جميع الكائنات يميلون – على الأغلب الأعم – إلى القصد فى التفسيرات والتعليلات ، ويتجنبون البحث فى الأصول الأولى مكتفين من الأسباب بما يخضع للتجربة ويصلح للتقرير بأساليب العلم الطبيعى الحديث .

وخلاصة مذهبهم أن أنواع الاحياء تتحول وتتعدد على حسب العوامل الطبيعية ، وأنها ترجع جميعا إلى أصل واحد أو أصول قليلة لعلها هى الخلايا البدائية ..

وليس القول بتقارب الأنواع أو بتدرجها ، رأيا حديثا مجهولا قبل ظهور مذهب دارون أو مذاهب النشوئيين العصريين على العموم ، ولكنه رأى قديم قال به فلاسفة اليونان وعرفه مفكرو العرب كما سنبينه فى فصل آخر من فصول هذا الكتاب ، وإنما الجديد منه إسناده إلى أسباب العلوم الطبيعية التى شاعت بين أواخر القرن السابع عشر وأوائل القرن الثامن عشر ، وابتدأ القول به مع ابتداء البحث العلمى على مناهج العلماء المحدثين ..

قال به العالم النباتى السويدى كارل لينوس (١٧٠٧ –١٧٧٨) **Carl Linnaeus** الذى عنى بتصنيف الأنواع والأجناس فى دراسته للنباتات وبنى على هذا التصنيف رأيه فى أنواع الاحياء على التعميم .

وقد كان لمباحث هذا العالم أثر واسع فى البيئة العلمية الانجليزية ، فأنشئ المجمع اللينى فى لندن بعد وفاته بعشر سنوات ، نسبة إليه .

وقال به بوفون العالم النباتى الفرنسى (١٧٠٧ – ١٧٨٨) **Buffon** الذى ألف كتابه المفصل عن التاريخ الطبيعى بمعاونة الأستاذ دوبنتون **Daubeaton** وآخرين ، واتخذ من تصنيف أنواع النبات رأيا يماثله فى تصنيف أنواع الحيوان .

وكان من المعاصرين لهذين العالمين اراسموس دارون **Erasmus Darwin** (١٧٣١ – ١٨٠٢) جد دارون الذى ينسب إليه مذهب النشوء والتطور ، فكان رائدا لحفيده فى القول بالتقارب بين الانسان والحيوانات العليا ، وعاش معه فى عصره الد الفقيه الايقوسى لورد منبودو (١٧١٤ – ١٧٩٩) **Lord mon bodda** صاحب كتاب « أصل اللغة وترقيها » وكتاب « ماوراء الطبيعة فى العصور القديمة .. »

ومذهبه فى تطور الإنسان ظاهر من بحثه عن الأسباب الطبيعية لتطور اللغة . وعن العلاقة بين الطبيعة وما وراء الطبيعة عند الأقدمين..

ويتبين من المقابلة بين تواريخ ميلاد هؤلاء العلماء ، أن جو العلم الطبيعى فى القارة الأوربية من شمالها إلى جنوبها كان قد تهيأ لدراسة الحياة والاحياء على أساس الوحدة فى قوانين الطبيعة ، ولم يكن ذلك مقصورا على السويد وفرنسا وانجلترا ، بل صح من روايات مؤرخى العلوم عند الألمان والروس أن هذه الآراء وجدت من يقول بها على نحو من الأنحاء ، وان كانت روايات هؤلاء المؤرخين لا تخلو من مداخلة الفخر بالسبق العلمى بين الأمم الأوربية .

ولكن مذهب النشوء لم يُعرف بتفصيله قبل العالم الفرنسى لامارك (١٧٤٤ – ١٨٢٩) Lamarck ثم العالمين الانجليزيين . شارل دارون (١٨٠٩ – ١٨٨٢ – وزميله الفريد رسل والاس (١٨٢٣ – ١٩١٣) وعلى مباحث هؤلاء العلماء الثلاثة يقوم أساس مذهب النشوء ، أو مذهب التطور ، بشقيه المقدمين فى اعتبار العلماء إلى اليوم .

* * *

وكل من لامارك ودارون ووالاس يقول بتحول الأنواع ، ويرد كثرتها إلى نوع واحد أو أنواع قليلة ، ولكنهم لا يتفقون على أسباب التحول ولا على الصفات والوظائف التى تنتقل بالوراثة متى تغيرت فى تكوين الأفراد . .

فنى رأى لامارك أن أعضاء الجسم الحى تتغير بالاستعمال أو بالاهمال أو بطارئ من طوارىء المرض والاصابة ، وأن الصفات المكتسبة التى تتولد من ذلك تنتقل بالوراثة ولا تزال تتباعد بين الأفراد حتى ينفصل كل منها بنوعه المستقل الذى لا يقبل التناسل مع غيره ، وقد ضرب المثل بالزرافة وافترض أنها – لطول قوائمها – كانت تأكل طعامها من أطراف الشجر العليا ، وتعودت أن تمط عنقها كلما تجردت الفروع السفلى من أوراقها حتى بلغ غاية امتداده ، وثبت على هذا الطول فى أعقابها المتوالية .

والنشوئيون الذين يرفضون القول بوراثة الصفات المكتسبة ، يستدلون على

بطلان هذا الرأى ببعض الصفات المكتسبة التى شوهدت منذ أجيال كثيرة ، ولم يشاهد لها أثر وراثى فى الأجنة والمواليد ، ومنها أن نساء بورما تعودن منذ أجيال أن يطلن أعناقهن بالأطواق العريضة يضعن طوقا منها فوق طوق حتى تبلغ من الط ل غاية الاحتمال ، ولا تزال بنا ن يولدن بأعناق لا تزيد فى طولها على أعناق البنين الذكور ، ومنها أن عادة الختان عند اليهود لم تعقب أثرا وراثيا بعد استمرار ا منذ ثلاثين قرنا أو تزيد ، ويشاهد مثل ذلك فى ذرية الحيوان الداجن التى تعود المدجنون له أن يقطعوا أذنابه أو يستأصلوا بعض أعضائه ، فانها تولد بأعضاء كأع ماء آبائها وأمهاتها بعد انقضاء عدة أجيال على تدجينها .

ويرى النشوئيون الذين يقولون بوراثة الصفات المكتسبة أن قصر الزمن الذى مر على هذه المشاهدات – بالقياس إلى الآماد الطوال التى مرت على تطور الأنواع الحيوانية – لا يكفى للجزم بامتناع الوراثة على إطلاقها ، وأن إهمال الأعضاء بالقطع ليس من شأنه – ضرورة – أن يورث ولو طال عليه الأمد ، لأن المقصود بالاهمال ما يحدث أثرا فى قوام البنية الباقية أو ينشأ عن حدوث هذا الأثر فيها .

ويلجأ النشوئيون – على رأى دارون ووالاس – إلى تعليل آخر لحدوث التحول فى الأنواع ، فيعللونه بالانتخاب الطبيعى والانتخاب الجنسى ، مع القول بتنازع البقاء لزيادة المواليد الحية على الموارد الكافية لتغذيتها ووقايتها . .

فالزرافة – عندهم – لم تنقل صفة مكتسبة إلى ذريتها ، ولكن أفراد الزراف ولدت قديما وفيها تفاوت فى الصفات كما يتفاوت الأفراد فى جميع الأنواع ، وبقى أطولها عنقا لأنه استطاع أن يبلغ اعالى الشجر حيث يقل الطعام ويقصر غيره من أفراد الزراف عن بلوغه ، وهنا يعمل الانتخاب الطبيعى عمله فتبقى ذرية الزراف الطوال العنق وينقرض ما عداها ، ويعمل الانتخاب الجنسى عمله – مع الانتخاب الطبيعى – لأن الأفضل من ذكور الحيوان وإناثه يفضل على غيره عند الجنس الآخر ، فيعقب كلا الجنسين المفضلين ذرية تشبهه فى الامتياز على سائر الأفراد .

وليس مثل الزرافة فى رأى دارون بأسعد حظا من هذا المثل فى رأى لا مارك ، لأن المعترضين عليه يقولون إن قلة الورق على فروع الشجر السفلى يبيد صغار الزراف

كما يبيد أنواع الحيوان التى تعيش مثله على العشب أو على الشجر القصار ، وأن ذكور الزراف أطول أعناقا – فى الغالب – من إناثه ، فهى خليقة أن تفنى مع غيرها من الزراف القصار الأعناق . .

إلا أن الأكثرين من النشوئيين يعتبرون هذا الخطأ سوء تمثيل من دارون ، ولا يجعلونه سببا كافيا لبطلان القول بالانتخاب الطبيعى . . فلو أن دارون نظر إلى مزية القوائم الطوال ، ولم ينظر إلى مزية العنق الطويل لأمكن تعليل بقاء الزراف الممتاز بالقدرة على الجرى بفعل الانتخاب الطبيعى والانتخاب الجنسى فى وقت واحد ، لأنه يفلت من مطارديه ويسبق سائر الزراف إلى أماكن المرعى كلما اضطرته ندرة المرعى إلى الانتقال من مكان إلى مكان ، وقد صح تمثيل دارون بأنواع شتى من الحيوان غير نوع الزراف فلم يصادفه فيها مثل هذا الاعتراض .

* * *

وبعد المقارنة بين الرأيين – رأى لامارك ورأى دارون ووالاس – يتضح أنهما ينتهيان إلى نتيجة متشابهة ، وهى ضرورة القول فى النهاية بوراثة الصفات المكتسبة على طول الزمن ، فإن لم تنتقل بعد اكتسابها فى حياة فرد واحد فهى منتقلة بعد التجمع والتمكن من فرد إلى فرد يتم بينهما التوارث فجأة أو على أثر التدرج البطىء ، ولم يكن فى ذهن دارون فرض معلوم غير طول الزمن يوم خالف النشوئيين من قبله فى تعليله لتحول الأنواع ، وكل ما هنالك أن دارون جرى على عادته من اجتناب الأحكام الإيجابية كلما أمكن تعليل الظواهر المجهولة بالعلل السلبية ، فهو يقول إن الأنواع تبقى لأن أسباب الانقراض عجزت عن إبادتها ، بدلا من القول بمؤثرات معينة تخلق الصفات وتؤدى إلى انتقالها بالوراثة ، وتكاد آراؤه فى تنازع البقاء وفى الانتخاب الطبيعى والانتخاب الجنسى ، أن تنتهى إلى نتيجة واحدة ، وهى أن الاحياء بقيت لأنها لم تنقرض ، وأن أسباب الفناء عجزت عن إبادتها كما أبادت غيرها . وهذه العادة الذهنية هى فى وقت واحد مصدر القوة ومصدر الضعف فى تفكير دارون وفى هذا الضرب من التفكير على عمومه . . فإنها دليل على الأمانة الفكرية التى تحجم عن تقرير حكم معين قبل ثبوته والاحاطة بحقيقته ، وهى كذلك

موضع النقص الظاهر لأن العوامل السلبية لا تقوم عليها دلائل الخلق والانشاء ، وإن قامت عليها أحيانا دلائل الزوال الذى يفيد زوال فريق وسلامة فريق . .

وقد كان خطأ النشوئيين فى تقرير مسألة الوراثة نقصا لازما لمباحث العلم الطبيعى فى القرن التاسع عشر ، أيا كان رأى العالم الذى يقرر هذه المسألة ، لأن أسرار الوراثة لم تعرف قبل تقدم علم الناسلات (أو الجينات) Genetics وظهور فعل الناسلة Gene والصبغية Chormosome فى نقل الخصائص والفوارق الفردية من الآباء والأمهات إلى الأبناء .. فكل صفة لا تكمن فى الناسلة ولاتحتويها صبغية من صبغياتها فهى صفة عارضة لا تنتقل إلى الذرية بالوراثة ، ويقول الأستاذ نيفيل جورج – أحد ثقات هذا العلم – إن الانتخاب الطبيعى – لأجل هذا – لا يصلح لتعليل مذهب النشوء أو مذهب التطور ، لأنه يعلل زوال غير الصالح ولا يعلل نشأة المزايا التى تحقق الصرح وتكفل لصاحبها الدوام فى ميدان تنازع البقاء ، ثم تفتح الباب لعمل الانتخاب الطبيعى فى المستقبل عند التفاوت فى تلك المزايا الموروثة بين الأفراد . وإنما تنشأ هذه المزايا بعمل من أعمال الطفرة Mutation يكفى لاحداث التغيير المطلوب فى الناسلة وفى صبغياتها التى تنقل تلك المزايا بالوراثة وقد أمكن العلم بالخواص التى تنقلها كل صبغية من الصبغيات فى بعض أنواع النبات والحيوان ، وأمكن التأثير فى الصبغية بفعل العقاقير أو الأشعة السينية ، ويقال إن الأشعة الكونية تفعل هذا الفعل إذا نفذت إلى بذور النبات والحيوان ، وبها يعللون التحول المفاجىء كما يعللون الاختلاف الطارىء على النبات فى الألوان والأحجام والأشكال ..

وتجرى تجارب الأشعة الآن لاحداث التحول الموروث فى أنواع من الذباب والفراش ، وقد تؤدى التجربة فعلا إلى ظهور خاصة فى الحشرة تغير ذريتها فتخالفها بعض المخالفة ويثبت الاختلاف بعد ذلك على سنن الوراثة المعروفة بالمندلية ، نسبة إلى « مندل » صاحب التجارب المشهورة فى وراثة الحبوب . ومن هذه التجارب تجربة تأثير الأشعة السينية على ذباب الفاكهة المعروف باسم الدرسفيلة Drasophila فإن تعريض الذبابة منه للأشعة يغير ذريتها ، فتأتى مخالفة لها فى لون

العين أو فى طول الجناح . ويثبت هذا الاختلاف بعد ذلك فى أجيالها المتعاقبة على السنة المندلية المقررة لتنظيم خطة الوراثة على نسق معروف من الأعقاب إلى الأعقاب . .

* * *

ويتجدد الآن سؤال قديم ملازم لفكرة النشوء منذ انتشار مذاهبه قبل تقدم علم الناسلات : فما هو مدى سريان التطور على الجنس البشرى ؟ هل هناك حد فاصل بين البشرية والحيوانية ؟ وإذا أمكن غدا تحسين أنواع الحيوان بمعالجة الناسلات ، فهل يمكن استخدام هذه الوسائل فى تحسين صفات الإنسان الفكرية والروحية ؟ . .

إن النشوئيين قد تساءلوا عن هذا الفاصل ، منذ قرروا آراءهم عن التطور على قواعد العلوم التجريبية وأجابوا عنه إجاباتهم على حسب عقائدهم مرة وعلى حسب أمزجتهم مرة أخرى .

فالعالم الفرنسى بوفون يقرر أن تقسيم الأنواع يتناول الانسان من جانبه الحيوانى ولا يعرض لجوانبه المميزة له فى عقائد المؤمنين ، وداروِن يقول انه يتكلم عن الأطوار التى تؤثر فى جسد الانسان ولا شأن له بما عدا ذلك من الملكات الروحية التى يقررها له الدين . وهذه الأجوبة من النشوئيين ليست بالأجوبة الحديثة فى بابها على ذلك السؤال القديم ، فان ابن سينا – مثلا – كان يقرر مذهب الطب فى الأمراض التى تنسب إلى فعل الجان والأرواح الخبيثة أو الطيبة فيقول انه لا ينفي هذا الفعل ولكنه ينظر إلى آثاره الجسدية فيرى أنها تحدث الأعراض التى يعالجها بعلاجها الطبى الموصوف لها عند الأطباء

وليس النشوئيون جميعا على منهج بوفون وداروِن أو منهج ابن سينا وأصحابه من علماء الزمن القديم ، فان بعض علماء النشوء المحدثين – وعلى رأسهم ارنست هكل – ينكرون كل نسبة للانسان غير نسبته إلى أنواع الحيوان ، ويجعلون لهذه النسبة شجرة تجمع بينه وبين القردة العليا وتتنزل فى جذورها إلى القردة المذنبة التى تعيش فى أمريكا الوسطى وأمريكا الجنوبية **Marnasets** وقلما تحتمل الجو فى

الأقاليم الشمالية ، ومن دونها الليمور Lemuy قرد مدغشقر ، وهو موضوع فى شجرة النسب دون قردة « المرموز » الأمريكية

ويرتب النشوئيون القردة العليا – صعدا – من الجيبون إلى الأورانج ، إلى الشمبانزى ، إلى الغوريلا ، وقد يفرقون بينها فى درجات الرقى بحسب اعتمادها على تسلق الأشجار أو المشى على أديم الأرض والقدرة على الوقوف واعتدال القامة عند السير على قدمين .. فأدناه ما كان اعتماده كله على التسلق ومعيشته كلها فوق الأشجار ، وأعلاها ما استغنى عن تسلق الأشجار واحتاج إلى استخدام يديه وهو ماش على قدميه ، فان نموالدماغ مرتبط بدرجة العمود الفقرى وعظام العنق ودرجة التصرف باليدين عن قصد وإرادة لتحقيق عمل من الأعمال ، ويزعم هؤلاء النشوئيون أن « التطور » الانسانى له علامات تبدأ من قردة الليمور وقردة المرموز المذنبة ، وتتدرج – صعدا – إلى الانسان حيث يزول الذنب وينمو الدماغ وتتحول اليد إلى أداة صالحة للتناول غير مقصورة على المشى أو التعلق بفروع الأشجار . ومجمل تلك العلامات أنها بوادر الجلوس والوقوف واختفاء الذنب ومخالب القدمين واليدين

ويذهب أحد النشوئيين المحدثين إلى القول بأن نوع الانسان سابق لأنواع القردة بمئات الألوف من السنين ، وأن القردة العليا أناسى ممسوخة فقدت أوائل الصفات البشرية ، وانحدرت فى الصفات العقلية والجسدية إلى ما دون تلك المرتبة بكثير أو قليل ..

وصاحب هذا الرأى هو الدكتور هرمان كلاتش Klaatsch الذى كان يدرس علم الانسان بجامعة برسلو قبل الحرب العالمية الأولى ، وعنده أن إنسان جاوه الذى وجدت بقاياه المتحجرة وأطلق عليه العلماء اسم Pithecanth ropus هو المرتبة الوسطى التى صعد منها خلفاؤها إلى ما فوقها وهبط منها الخلفاء الآخرون إلى ما دونها ، ويزعم « كلاتش » أن الانسان ينتمى إلى أصول متعددة ، ولا ينجم كله من أصل واحد .. فالمغوليون وقرد الأورانج من أصل واحد ، وزنوج إفريقية

والشمبانزى والغوريلا من أصل آخر ، ولكنه زعم لا تؤيده المقابلة بين هذه الأحياء فى الخصائص التشريحية ..

* * *

ومن المفارقات أن هؤلاء النشوئيين النسابين لم يبلغوا بالقرد ذلك الشبه الذى تصورته طائفة من الأقدمين قبل انتشار القول بالتطور واشتباك الأنواع والأجناس فإن تلك الطائفة من الأقدمين تصورت أن جميع القردة أناسى ممسوخون عقلت ألسنتهم وبقيت لهم أفهامهم ، وليس بينهم وبين الناس من فارق غير الفارق الذى يباعد بين الكائنات المشوهة والكائنات السوية من أصل واحد ، ولكن شجرة النسب تحتاج إلى علم التشريح لالتقاط المشابه التى ترجع القول بوحدة الأصول الجسدية بين الانسان وبين أقوم الخلائق من أنواع الحيوانات العليا ..

يقول آرثركيت – من أكبر النشوئيين المتأخرين – فى كتابه شجرة نسب الانسان : « إن الأستاذ وود جونس لفت النظر إلى بقاء علامات كثيرة فى تركيب الانسان قد اختفت من تراكيب القردة العليا وعامة القرود ، وأن هذه القردة العليا وسائر القرود قد احتفظت بعلامات شتى زالت من تركيب الانسان ولست أرى أن هذه الشذوذات تستدعى تعديل النسب التى رسمتها هنا ، ولكنى أرى أن تفسيرها ينبغى أن يلتمس فى زيادة العناية بفهم قوانين الوراثة ، فان الكائنات الحية أشبه بأشكال الفسيفساء المتداخلة ينتقل بعض أنماطها بالوراثة ويختفى غيرها .. فالغوريلا تولد فى أكبادها الفصيصات التى تتولد فى أكباد القرود ، بينما تقترب كبد الأورانج أشد الاقتراب فى تركيبها المتماسك من كبد الانسان ولكننا ينبغى أن نفترض أن هذين الحيوانين تحدرا منذ عهود بعيدة من سلف مشترك يشبه تركيب كبده كبد الحيوان »

ثم يستطرد إلى بيان الشبه بين الإنسان والقردة الافريقية فيقول : « إن الانسان له على جانبى تجويفه الأنفى سلسلة من الجيوب تسمى بأسماء العظام التى تجاورها .. ولا يسعنا أن نعتقد أنها تتولد على حدة فى نوعين من الحيوان ، ويوجد هذا النمط الإنسانى فى كل من الشمبانزى والغوريلا ، وإن كانت الجيوب فى الغوريلا وحدها قد اتخذت لها نمطا آخر ، ومن الجائز أن نمطا آخر كان موجودا فى أنف سلف

الأورانج ،ويصعب التحقق منه بعد انتكاس تركيب الأنف كله فى هذا العضو الكبير من أعضاء الحيوانات القردية العليا .. وقد عرف أن دم الغوريلا ودم الشمبانزى أقرب استجابة إلى الانفعال بدم الإنسان من جميع الفقاريات .. وتبلغ العلامات المشتركة بين الإنسان وكل من الشمبانزى والغوريلا نسبة إلى سائر العلامات التى أحصيتها تقدر بثمانية وسبعة أعشار فى المائة ، ولهذا أتوقع أن بقية من بقايا المتحجرات تنكشف يوما فى إفريقية تعتبر السلف المشترك بين الغوريلا والشمبانزى والانسان » .

* * *

هذه هى العلامات التشريحية التى انتهى إليها أصحاب شجرة النسب من النشوئيين المتأخرين ، وما عداها من العلامات ووجوه الشبه لا يعدو أن يكون إعادة لتصوير المشابه العامة التى يلمحها النظر لأول وهلة بغير حاجة إلى تشريح الأعضاء ، وقد أحصاها الأستاذ « شابمان بنشر » **Pincher** فى كتابه عن تعليل التطور ، ثم عقب عليها قائلا : « إنه لا احتمال لتسلسل الانسان من القردة كما نعرفها ، لأن القردة منفردة بتركيب خاص يستحيل تشريحيا أن يتطور منه تركيب الانسان ، إذ كان الانسان قد نما له خلال مليون سنة دماغ أكبر وقامة أقوم ويد — فوق هذا وذاك — أصلح للتناول والتصرف بالاستعمال » .

وهذا الفاصل الحاسم هو قصارى مدى الاقتراب بين النوع البشرى وسائر أنواع الأحياء بمقياس التطور وعلم الوراثة ، يعبر عنه النشوئى فيقول أنه سبق مليون سنة ، ليلحق به مدى الفارق الروحى فى تعبير الدين .

التطور قبل مذهب التطور

إن اختلاط الأنساب بين أنواع الحيوان خاطر قديم توارثه الأقدمون من أزمنة مجهولة ، وندرت أمة من أمم السلف البعيد لم تتواتر فيها الأخبار والأساطير عن التناسل بين أنواع الحيوان أو بين الانسان والحيوان ، أو بين الانس والجن ، أو بين الانس وأرباب الأساطير المشبهين بالانسان . ومرد هذه الأخبار والأساطير – على الأكثر – إلى جهل الأوائل بوظائف الأعضاء ، وجهلهم بالشروط الحيوية التى تلزم للحمل والولادة وإمكان التناسل بين الأزواج المستعدة للتناسل فى النوع الإنسانى فضلا عن سائر الأنواع ، فكل ما يلد من نوعه صالح عندهم للتوليد من الأنواع الأخرى من الأحياء .

وقد سبق القول بالتطور وتدرج الكائنات ، كما سبق القول بتحول الأنواع وتناسلها .. ولكن لعلة غير تلك العلة ، مردها – على الأرجح – إلى المفاضلة والترتيب بين الكائنات على حسب حظها من الحياة أو من مشابهة الأحياء .. ثم نشأت علوم الكيمياء والطب والزراعة ، فكان للعلم عمله فى التفرقة بين المواد الكيمية المعدنية والنباتية والحيوانية ، واشترك الأحياء وغير الأحياء فى مباحث الكيمياء ، ثم جاءت فى مباحث المتأخرين مقابلة الكيمياء العضوية بالكيمياء غير العضوية .

ومما يشبه القول بتطور الكائنات وتدرجها قول الفارابى فى شرحه لأقوال المعلم الأول من كتاب « آراء أهل المدينة الفاضلة » إن « ترتيب هذه الموجودات ، هو أن تقدم أولا أخسها ، ثم الأفضل فالأفضل ، إلى أن تنتهى إلى أفضلها الذى لا أفضل منه ، فأخسها المادة الأولى المشتركة ، والأفضل منها الاسطقسات المعدنية ثم النبات ثم الحيوان غير الناطق ، وليس بعد الحيوان الناطق أفضل منه »

ويذهب الفارابى على هذا الترتيب فى التفرقة بين الإنسان والانسان ، بمقدار حظه من القوة الناطقة ، فيجيز أن يكون بعض أشباه الآدميين بالصورة الجسدية غير محاسبين أو غير أهل للحياة الأخرى .

ويقول الكتبى [1] وهو يتكلم عن طبائع القرد : « إن هذا الحيوان عند المتكلمين فى الطبائع مركب من إنسان وبهيمة ، وهو من تدريج الطبيعة من البهيمة إلى الإنسان »

ويقول القزوينى صاحب « عجائب المخلوقات » بعد تقسيمه الأجسام إلى نام وغير نام ، وهو ما يقابل اليوم تقسيمها إلى العضوى وغير العضوى ، إن « أول مراتب هذه الكائنات تراب وآخرها نفس ملكية طاهرة ، فإن المعادن متصلة أولها بالتراب أو الماء وآخرها بالنبات . والنبات متصل أوله بالمعادن وآخره بالحيوان ، والحيوان متصل أوله بالنبات وآخره بالانسان ، والنفوس الإنسانية متصلة أولها بالحيوان وآخرها بالنفوس الملكية .. » .

وهذا الانتقال من المشابهة بالجسد إلى المشابهة بالنفس شبيه باحتراس النشوئيين المحدثين عند التفرقة بين الانسان من جانبه الحيوانى والانسان من جانبه الروحى أو جانب القوى الأدبية الوجدانية ..

ويقول إخوان الصفاء فى رسالتهم العاشرة : « اعلم ياأخى أن أول مرتبة النباتية أو دونها مما يلى التراب هى خضراء الدمن ، وآخرها وأشرفها مما يلى الحيوانية النخل، وذلك لأن خضراء الدمن ليست بشىء سوى غبار يتلبد على الأرض والصخور والأحجار ، ثم يصيبها المطر فتصبح بالغداة خضراء كأنه نبت زرع وحشائش ، فاذا أصابها حر الشمس نصف النهار تجف ثم تصبح بالغد مثل ذلك من نداوة الليل وطيب النسيم ، ولا تنبت الكمأة ولا خضراء الدمن إلا فى أيام الربيع فى البقاع المتجاورة لتقارب ما بينها .. وأما النخل فهو آخر مرتبة النبات مما يلى الحيوانية، وذلك أن النخل نبات حيوانى لأن بعض أحواله وأفعاله مباين لأحوال النباتات وإن كان جسما نباتيا .. وفى النبات نوع آخر فعله أيضا فعل النفس الحيوانية ، وإن كان جسما نباتيا وهو الأكشوث ، وذلك أن هذا النوع من النبات ليس له أصل ثابت فى الأرض كما يكون لسائر النبات ، ولا له ورق كأوراقها بل هو يلتف إلى الأشجار والزروع والبقول والحشائش ويمتص من رطوبتها ويتغذى كما يفعل الدود

(١) محمد بن شاكر بن عبد الرحمن الكتبى الدارانى ولد فى داريا من قرى دمشق وتوفى سنة ٧٦٤ وأشهر كتبه المطبوعة « فوات الوفيات »

الذى يدب على ورق الأشجار وقضبان النبات .. وإن أدون الحيوان وأنقصه هو الذى ليس له إلا حاسة واحدة وهو الحلزون ، وهى دودة فى جوف أنبوبة تنبت فى تلك الصخور التى تكون فى بعض سواحل البحار وشطوط الأنهار ، وتلك الدودة تخرج نصف شخصها من جوف تلك الأنبوبة ، وتنبسط يمنة ويسرة تطلب مادة تغذى بها جسمها ، فإذا أحست رطوبة ولينا انبسطت إليه وإن أحست بخشونة أو صلابة انقبضت وغاصت فى جوف تلك الأنبوبة حذرا من مؤذ لجسمها ومفسد لهيكلها ، وليس لها سمع ولا بصر ولا شم ، إلا ذوق اللمس حسب . وهكذا أكثر الديدان التى تكون فى الطين فى قعر البحر وعمق الأنهار ليس لها سمع ولا بصر ولا ذوق ولا شم ، لأن الحكمة الإلهية لم تعط الحيوان عضوا لا يحتاج إليه فى وقت جر المنفعة أو دفع المضرة ، لأنه لو أعطاها مالا تحتاج إليه لكان وبالا عليه فى حفظها وبقائها . فهذا النوع حيوانى نباتى لأنه ينبت جسمه ، كما ينبت بعض النبات، ومن أجل أنه يتحـــرك بجسمه حركة اختيارية فهو حيوان ، ومن أجل أنه ليس له إلا حاسة واحدة فهو أنقص الحيوانات رتبة ، وتلك الحاسة أيضا هى التى يشاركها النبات فيها ، وذلك أن النبات له حس اللمس حسب »

ويقول ابن مسكويه من علماء القرن الرابع والخامس للهجرة فى كتابه تهذيب الأخلاق بعنوان الأجسام الطبيعية : « إن الأجسام الطبيعية كلها تشترك فى الحد الذى يعمها ثم تتفاضل بقبول الآثار الشريفة والصور التى تحدث فيها ، فإن الجماد منها إذا قبل صورة مقبولة عند الناس صار بها أفضل من الطينة الأولى التى لا تقبل تلك الصورة . فإذا بلغ إلى أن يقبل صورة النبات صار بزيادة هذه الصورة أفضل من الجماد ، وتلك الزيادة هى الاغتذاء والنمو والامتداد فى الأقطار واجتذاب ما يوافقه من الأرض والماء وترك ما لا يوافقه ونفض الفضلات التى تتولد فيه من جسمه بالصموغ ، وهذه الأشياء التى ينفصل بها النبات من الجماد ، وهى حال زائدة على الجسمية التى حددناها وكانت حاصلة فى الجماد ، وهذه الحالة الزائدة فى النبات التى شرف بها على الجماد تتفاضل ، وذلك أن بعضه يفارق الجماد مفارقة يسيرة كالمرجان وأشباهه ، ثم يتدرج فيها فيحصل له من هذه الزيادة شئ بعد شئ .. فبعضه ينبت من غير زرع ولا بذر ولا يحفظ نوعه بالثمر والبذر ، ويكفيه فى

حدوثه امتزاج العناصر وهبوب الرياح وطلوع الشمس ، فذلك هو فى أفق الجمادات .
وقريب الحال منها .. ثم تزداد هذه الفضيلة فى النبات ، فيفضل بعضه على بعض بنظام وترتيب حتى تظهر فيه قوة الاثمار وحفظ النوع بالبذر الذى يخلف به مثله ، فتصير هذه الحالة زائدة فيه ومميزة له عن حال ما قبله .. ثم تقوى هذه الفضيلة فيه حتى يصير فضل الثالث على الثانى كفضل الثانى على الأول ، ولا يزال يشرف ويفضل بعضه على بعض حتى يبلغ إلى أفقه ويصير فى أفق الحيوان ، وهى كرام الشجر كالزيتون ، والرمان ، والكرم ، وأصناف الفواكه .. إلا أنها – بعد – مختلطة القوى ، أعنى أن قوى ذكورها وإناثها غير متميزة ، فهى تحمل وتلد المثل ولم تبلغ غاية أفقها الذى يتصل بأفق الحيوان . ثم تزداد وتمعن فى هذا الأفق إلى أن تصير فى أفق الحيوان فلا تحتمل زيادة . وذلك أنها إن قبلت زيادة يسيرة ، صارت حيوانا وخرجت عن أفق النبات .. فحينئذ تتميز قواها ويحصل فيها ذكورة وأنوثة وتقبل من فضائل الحيوان أمورا تتميز بها عن سائر النبات والشجر، كالنخل الذى طالع أفق الحيوان بالخواص العشر المذكورة فى مواضعها ولم يبق بينه وبين الحيوان إلا مرتبة واحدة وهى الاطلاع من الأرض والسعى إلى الغذاء. وقد روى فى الخبر ما هو كالاشارة أو كالرمز إلى هذا المعنى وهو قوله صلى الله عليه وسلم : « أكرموا عماتكم النخل ، فانها خلقت من بقية طينة آدم »

ويستطرد ابن مسكويه إلى ذكر الحيوان بما يشبه قول المحدثين عن أسلحة الحيوان فى تنازع البقاء ، فيقول إن الحيوان : « إن كان ضعيفا لم يعط سلاحا البتة ، بل أعطى آلة الهرب كشدة العدو والقدرة على الحيل التى تنجيه من مخاوفه. وأنت ترى ذلك عيانا من الحيوان الذى أعطى القرون التى تجرى له مجرى الرماح، والذى أعطى الأنياب والمخالب التى تجرى له مجرى السكاكين والخناجر ، والذى أعطى آلة الرمى التى تجرى له مجرى النبل والنشاب ، والذى أعطى الحوافر التى تجرى له مجرى الدبوس والطبرزين . فأما ما لم يعط سلاحا لضعفه عن استعماله ولقلة شجاعته ونقصان قوته الغضبية، ولأنه لو أعطيه لصار كلا عليه، فقد أعطى آلة الهرب والحيل بجودة العدو والخفة والختل والمراوغة كالأرانب وأشباهها .. فأما الانسان فقد عوض من هذه الآلات كلها بأن هدى إلى استعمالها كلها .. »

ثم يتدرج إلى أقرب الحيوان إلى الانسان ، وهو « الذى يحاكى الانسان من تلقاء نفسه ويتشبه به من غير تعليم كالقردة وما أشبهها ، ويبلغ من ذكائها أن تستكفى فى التأدب بأن ترى الانسان يعمل عملا فتعمل مثله من غير أن تحوج الانسان إلى تعب بها ورياضة لها . وهذه غاية أفق الحيوان التى إن تجاوزها وقبل زيادة يسيرة ، خرج بها عن أفقه وصار فى أفق الانسان الذى يقبل العقل والتمييز والنطق والآلات التى يستعملها والصور التى تلائمها ..

« ولا يقف التدرج عند أفق الانسان ، بل يتفاضل الناس بين أمم لا تتميز عن القرود إلا بمرتبة يسيرة ، وأمم تتزايد فيهم قوة التمييز والفهم إلى أن يصيروا إلى وسط الأقاليم فيحدث فيهم الذكاء وسرعة الفهم والقبول للفضائل ، وإلى هذا الموضع ينتهى فعل الطبيعة التى وكلها الله عز وجل بالمحسوسات ، ثم يستعد بهذا القبول لاكتساب الفضائل واقتنائها بالارادة والسعى والاجتهاد الذى ذكرناه فيما تقدم ، حتى يصل إلى آخر أفقه .. فإذا صار إلى أفقه اتصل بأول أفق الملائكة ، وهذا أعلى مرتبة الانسان .. وعندها تتأحد الموجودات ويتصل أولها بآخرها ، وهو الذى يسمى دائرة الوجود ، لأن الدائرة هى التى قيل فى حدها أنها خط واحد يبتدئ بالحركة من نقطة وينتهى إليها بعينها . ودائرة الوجود هى المتحدة التى جعلت الكثرة وحدة . وهى التى تدل دلالة صادقة برهانية على موجدها وحكمته وقدرته ووجوده، تبارك اسمه وتعالى جده وتقدس ذكره »

إلى أن يقول مخاطبا طالب المعرفة : « وحدث لك الايمان الصحيح وشهدت ما غاب عن غيرك من الدهماء ، وبلغت أن تتدرج إلى العلوم الشريفة المكونة التى مبدؤها تعلم المنطق ، فانه الآلة فى تقويم الفهم والعقل الغريزى ثم الوصول به إلى معرفة الخلائق وطباعها ثم التعلق بها والتوسع فيها والتوصل منها إلى العلوم الإلهية، وحينئذ تستعد لقبول مواهب الله عز وجل وعطاياه ، فيأتيك الفيض الإلهى، فتسكن عن قلق الطبيعة وحركاتها نحو الشهوات الحيوانية وتلحظ المرتبة التى ترقيت منها أولا من مراتب الموجودات ، وعلمت أن كل مرتبة منها محتاجة إلى ما قبلها فى وجودها ، وعلمت أن الانسان لا يتم له كماله إلا بعد أن يصل إلى ما قبله واذا صار إنسانا كاملا وبلغ غاية أفقه أشرق نور الأفق الأعلى عليه ، وصار إما

حكما تاما تأتيه الالهامات فيما يتصرف فيه من المحاولات الحكمية والتأييدات العلوية فى التصويرات العقلية ، وإما نبيا مؤيدا يأتيه الوحى على ضروب المنازل التى تكون له عند الله تعالى ذكره ، فيكون حينئذ واسطة بين الملأ الأعلى والملأ الأسفل .. ولذلك تكثر حاجات الناس إلى المقومين والمنفعين .. » .

وفحوى كلام ابن مسكويه أن الترقى الطبيعى ينتهى إلى غاية وسع الطبيعة من ترقية الجسد واتمام حسه وأعضائه ، ثم يبدأ الترقى بالعقل والخلق من أفق الحيوان إلى ما هو أعلى وأرفع وأقرب إلى الملأ الأعلى ..

ولابن مسكويه بحث كهذا فى كتابه « الفوز الأصغر » يبدأ فيه من البداءة، وهى ما سماه بالمركز فيقـــول : « إن أول أثر ظهر فى عالمنا هذا من نحو المركز بعد امتزاج العناصر الأولى – أثر حركة النفس فى النبات ، وذلك أنه تميز عن الجماد بالحركة والاغتذاء ، وللنبات فى قبول الأثر مراتب مختلفة لا تحصى ، إلا أنها مقسمة إلى ثلاث مراتب : الأولى والوسطى والأخيرة ، ليكون الكلام عليه أظهر » .. ثم ينتهى كما انتهى بكلامه فى تهذيب الأخلاق إلى آخر مرتبة الحيوان وهى « مراتب القرود وأشباهها من الحيوان الذى قارب الانسان فى خلقته الانسانية ، وليس بينها إلا اليسير الذى إذا تجاوزه صار إنسانا »

* * *

وأشار ابن خلدون إلى هذا التدرج – أو التطور – فترقى به من المعدن إلى القرد إلى الانسان ، وعلل اختلاف الناس بتأثير الإقليم وأحوال المعيشة على الابدان والأخلاق ..

قال : « إن عالم التكوين ابتدأ من المعادن ثم النبات ثم الحيوان على هيئة بديعة من التدريج : آخر أفق المعادن متصل بأول أفق النبات مثل الحشائش وما لا بذور له ، وآخر أفق النبات مثل النخل والكـرم متصل بأول أفق الحيوان مثل الحلزون والصدف ولم يوجد لها إلا قوة اللمس فقط ، ومعنى الاتصال فى هذه المكونات أن آخر أفق منها مستعد بالاستعداد الغريب لأن يصير أول الأفق الذى بعده ، واتسع عالم الحيوان وتعددت أنواعه وانتهى فى تدريجه التكوينى إلى الانسان صاحب الفكر والروية ترتفع إليه من عالم القردة الذى اجتمع فيه الحس والادراك،

ولم ينته إليـــه الفكر والروية بالفعل .. وكان ذلك أول أفق الانسان من بعده ، وذلك غاية شهودنا .. »

وينفى ابن خلدون أوهام القائلين بنسبة الألوان والطبائع إلى الدعوات أو اللعنات ، فيقول إن « بعض النسابين ممن لا علم لهم بطبائع الكائنات ، توهم أن السودان وهم ولد حام بن نوح اختصوا بلون السواد لدعوة كانت عليه من أبيه ظهر أثرها فى لونه وفيما جعل الله من الرق فى عقبه .. ودعاء نوح على ابنه حام قد وقع فى التوراة ، وليس فيه ذكر السواد .. وإنما دعا عليه أن يكون ولده عبيدا لولد إخوته لا غير . وفى القول بنسبة السواد إلى حام علة من طبيعة الحر والبرد وأثرهما فى الهواء ، وفيما يتكون فيه من الحيوانات »

ويقول فى موضع آخر : « استولى الحر على أبدانهم وفى أصل تكوينهم ، فكان فى أرواحهم من الحرارة على نسبة أبدانهم .. وكذلك يلحق بهم قليلا أهل البلاد البحرية لما كان هواؤها متضاعف الحرارة بما ينعكس عليه من أضواء بسيط البحر وأشعته »

ويصحح بعض المتقدمين ما لعله يسبق إلى الوهم من القول بتدرج الكائنات، إذ يخيل إلى الجاهلين بمعنـــاه أنه يعنى الكائنات فى درجة درجة من مراتبه المترقية ، وإنما حقيقته كما قال الخازنى : « إننا إذا قلنا إن الانسان بلغ حد الكمال وكان يوما عجلا فصار حمارا فغدا حصانا فأضحى بعده قردا ، فليس معنى ذلك أنه كان يوما عجلا فصار حمارا فغدا حصانا فأضحى بعده قردا حتى صار فى النهاية إنسانا »

فليس عندهم من الضرورى أن يكون كل كائن رفيع قد تنقل قبل ذلك بين أطوار الكائنات التى هى دونه ، وإن كان جميع المتكلمين فى أطوار الكائنات الحية لا يمنعون إمكان التسافد بين الحشرات والحيوانات المختلفة ، كما جاء فى كتب الحيوان جميعا ، وأسهب فيه الجاحظ على الخصوص إسهابا سَلِمَ فيه من كثير من خرافات المتقدمين عليه واللاحقين به فى هذا الباب ، وأكثرهم ترديدا لهذه الخرافات القزوينى صاحب عجائب المخلوقات . فهو حافل بالأساطير عن اختلاط أنواع الأحياء ، وعن الخلائق الأسطورية التى انقرضت ولم يبق منها غير آثارها وأخبارها ، وعجائب المخلوقات التى تتوافر الأحاديث عن وجودها فى الأطراف النائية التى لم يصل إليها

أحد غير من ضل طريقه أو جنحت به السفن من الملاحين والمغررين ، وهذه الأساطير – كما قلنا فى غير هذا الكتاب[1] – تنفعنا الآن أكثر مما تنفعنا حقائق تلك الكتب « لأنها هى البقية الباقية لنا من تلك الأوهام التى تسلط على العقل البشرى فى أزمانه الخالية ، وهى المفتاح الذى ليس لدينا مفتاح سواه لخزانة المخيلة ، وما أكنته من تصورات الانسان ووجدانه وما انطبع فيها من البدائه العميقة المتغلغلة » التى عودتنا أن تنطق بالأحاجى والألغاز وتبهم حتى على صاحبها وهو الذى أوجدها وصورها .. وهذا الكتاب الذى نحن بصدده مكتظ بتفصيل أنواع هذه الحيوانات وما يشاكل منها فى البر والبحر ... فمنها كلب الماء وقنفذ الماء وبقرة الماء وفرس الماء ، وزعموا إنها تلد من خيل الأرض ، ومنها إنسان الماء ويشبه الإنسان إلا أن له ذنبا . وقد جاء شخص بواحد منه – على قول القزوينى – إلى بغداد فعرضه على الناس ، وذكر أنه فى بحر الشام ببعض الأوقات يطلع من الماء إلى الحاضرة إنسان ، وله لحية بيضاء يسمونه شيخ البحر ويبقى أياما ثم ينزل ، فإذا رآه الناس يستبشرون بالخصب ، وحكى أن بعض الملوك حمل إليه إنسان مائى فأراد الملك أن يعرف حاله ، فزوجه امرأة فجاء منها ولد يفهم كلام الأبوين ، فقيل للولد : ماذا يقول أبوك . قال: أذناب الحيوان كلها على أسافلها فما بال هؤلاء أذنابهم على وجوههم. ونقل عن يعقوب بن اسحاق السراج أن رجلا ركب البحر فألقته الريح إلى جزيرة ... « فأتى قوم وجوههم كوجوه الكلاب وسائر أبدانهم كأبدان الناس »

وهذه الأساطير وما شاكلها قد تدرس على أنها تعبيرات من عمل المخيلة فى فهم الصورة البعيدة بزمانها أو مكانها ، وقد تدرس على أنها ترجمان للوعى الباطن الذى استقر فى أعماق بديهة الإنسان وغرائزه الوراثية ، ولابد أن تدرس فى جميع الأحوال لأنها مما يصح أن يعتبر « مسودات » للادراك الإنسانى تظهر فى كل عصر ولا تزال فى كل عصر معلقة بين الشك واليقين وبين الوهم والصدق فى انتظار التصحيح والتنقيح .

---

(١) كتاب الفصول للمؤلف .

أثر مذهب النشوء في الغرب

قوبل إعلان مذهب النشوء فى الغرب بثورة عاصفة من حملات الاستنكار والتكفير فى البيئات الدينية ، ويرى بعد انقضاء أكثر من قرن على إعلان هذا المذهب أن حملات الدينيين عليه فى البلاد الغربية لم تكن أحذق ولا أليق بالبحث الدينى أو العلمى من أشباه هذه الحملات التى قوبل بها فى بلادنا الشرقية يوم انتقل إليها للمرة الأولى ، كما سنبينه فيما يلى :

لقد حرم بعض معاهد العلم تدريس مذهب النشوء ، فظل هذا التحريم باقى الأثر إلى ما بعد الحرب العالمية الأولى بسنوات ، وحوكم الأستاذ سكوب فى دايتون (شهر يوليو سنة ١٩٢٥) لأنه خالف القانون الذى حرم تدريس المذهب لخروجه على العقيدة الدينية ، وهذه بعض الأسئلة والأجوبة التى سجلت أثناء المحاكمة بين محامى الدفاع وخبير الاتهام :

– هل تقرر أن كل ما ورد فى التوراة ينبغى أن يقبل بتفسيره الحرفى .

– أنا أقرر أن كل ما ورد فى التوراة ينبغى أن يقبل كما ورد فيها. وبعض ما جاء فى التوراة قد ورد فى سياق التشبيه ، كقوله : « إنكم ملح الأرض » .فلا استلزم من ذلك أن الانسان كان ملحا أو أنه كان له دم من الملح ، ولكننى أفهمه كما أفهم معنى شعب الله المختار . .

– هل لك أن تخبرنى يامستر بريان كم عمر الكرة الأرضية ؟

– كلا ياسيدى . . لست أدرى.

– ولا على وجه التقريب ؟..

– لست أحاول..ولعلى أقترب من تقدير العلماء ، ولكننى أحب أن أدقق كثيرا قبل الجواب .

– إنك لا تعبأ كثيرا بالعلماء ..أتعبأ بهم حقا ؟

– نعم ياسيدى . .

– أتعتقد أن الكرة الأرضية صنعت فى ستة أيام .

ستة أيام نعم .. ولكنها ليست أيام الأربع والعشرين ساعة .

* * *

وقد احتدم الجدل أثناء الاستجواب حتى اندفع الفريقان إلى التشهير بالعقائد الشائعة والمذاهب العلمية التى كانت مباحة للناشرين محرمة على المعلمين ، وكان أثر الضجة التى رددتها الصحف والأندية الثقافية حول هذه المحاكمة أن قانون التحريم سقط بالاهمال ثم بالالغاء .

إلا أن الباحثين الدينيين عدلوا أخيرا عن التحريم بقوة القانون إلى مناقشة المذهب بالبراهين العلمية ، فأخذ منهم فريق فى تفسير المذهب بالمعنى الذى يوافق الروايات الدينية بمعانيها الرمزية ، وأخذ الفريق الآخر فى إنكاره بالأدلة العلمية التى استند إليها العلماء ولا يزالون يستندون إليها إلى هذه الأيام .

فصدر عند الاحتفال بانقضاء ستين سنة على إعلان المذهب ، كتاب من كتب البحث العلمى على الطريقة الدينية ألفه الأستاذ ث . ب . بيشوب وسماه « النشوء منتقدا »[1] ولم يتزحزح فيه عن نصوص الكتب ، ولكنه أخرج من هذه النصوص ما يتناول الفترات التى تضطرب فيها روايات التاريخ كالفترة بين الفيضان ووفود الخليل إبراهيم إلى كنعان ، وأخرج منها الفترات التى لا تتعارض فيها النصوص والشواهد الجيولوجية ، ثم بنى انتقاده للمذهب على مطالبة النشوئيين بالدليل . . لأن العصور الجيولوجية لم تتكشف قط عن إنسان يخالف فى تكوينه الثابت تكوين النوع الانسانى فى صورته الحاضرة ، ولم تبق من آثار الطوارىء الجيولوجية بقية من أنواع الأحياء الأولى ، بل يرجح أن أقدم هذه العصور لا يعود بنا إلى مسافة أبعد من منتصف الطريق ، كما رأى والاس شريك دارون . . حيث يقول فى كتابه عن عالم الحياة « إنه لمن المحتمل جدا أن السجلات الجيولوجية الباقية لا تحملنا إلى أبعد من منتصف العمر الذى عمرته الحياة على الكرة الأرضية »

فليس فى السجلات الجيولوجية دليل ولا قرينة تؤيد القول بتطور الانسان من نوع آخر ، وأهم من ذلك أنه لا يوجد أمامنا دليل يؤيد تحول الأنواع فى عالم الحيوان أو عالم النبات ، وإن تشابه الأجنة الذى يتخذه بعض النشوئيين دليلا على التشابه

---

(١) Evolution criticised

القديم بين أنواع الحيوانات دليل مكذوب ، لأن صور الأجنة الصحيحة لا تبرز هذا الشبه ، وماعدا ذلك من الصور المتشابهة فهو مزور باعتراف واضع تلك الصور العالم الألمانى ارنست هكل ، فإنه أعلن بعد انتقاد علماء الأجنة له أنه اضطر إلى تكملة الشبه فى نحو ثمانية فى المائه من صور الأجنة لنقص الرسم المنقول .

ولم يدع بيشوب دليلا علميا بغير تعقيب عليه ، يستند إلى أقوال العلماء المختصين . . فقال إن حصان الحفريات على أقدم صورة لها يثبت من نسبته إلى نوع الخيل غير الأسنان ، وإن الطائر الذى قيل إنه الحلقة المفقودة بين الزواحف والطيور لم يتبعه قط فى تسلسل الحفريات طائر ذو أسنان ، وأيا كان نظام التطور بالنسبة إلى الخالق فالعالم النشوئى الأمين على علمه لا يتخذه سببا من أسباب الالحاد ، وكذلك كان والاس مؤمنا بالعقل المدبر كما قال فى كتابه عن عالم الحياة ، إذ يقرر جازما باعتقاده « إن ما تتطلبه – إطلاقا – ولا مناص من الاستدلال عليه ، هو ذلك العقل الذى هو أسمى وأعظم وأقوى من كل هذه العقول المتفرقة التى نراها حولنا وإنه لعقل لا يقدر على تسيير هذه القوى العاملة فى الأنواع الحية وعلى إرشادها وتدبيرها وحسب .بل إنه لهو بذاته ينبوع تلك القوى والعوامل ، وينبوع لما هو الأساس الأول لكل ما فى هذه العوالم المادية . . »

* * *

ويؤخذ من متابعة الفترات التى يستعاد فيها النقاش حول أصل الانسان أنها ترتبط بالمحن « الروحية » التى تثيرها مشكلات العالم الكبرى ، وأكبرها فى القرن العشرين مشكلة الحرب العالمية الأولى والحرب العالمية الثانية ،وقد تكون المناسبة لاستعادة النقاش تاريخية من قبيل الذكريات الموقوتة بالعشرات أو بالمئات من السنين ، ولكنها إنما تستعاد فى هذه المناسبات ببواعث الشكوك والمنازعات التى تصاحب الحروب العالمية والفتن الاجتماعية ، ولهذا كانت نهاية الحرب العالمية الثانية دورا من أهم أدوار البحث فى مذهب النشوء بما دعت إليه من بحوث متشعبة فى تنازع البقاء وإرادة القوة ، وفى تفسير التاريخ بالعوامل الاقتصادية أو العوامل الفكرية والروحية ، وفى هذه السنة – سنة ١٩٤٥– تدفقت الكتب التى تعرض لهذه

المباحث بأقلام علماء الطبيعة وعلماء اللاهوت ، ولكن مؤلفات اللاهوتيين فى هذه الفترة لم تكن دون مؤلفات العلماء الطبيعيين فى حجج العلم وشواهد التجربة وصدق النظر فى أقوال الأنصار والخصوم . ولعل أجمعها فيما اطلعنا عليه كتاب « الله والانسان والكون »[1]الذى توفر على تأليفه نخبة من الباحثين الدينيين يعرضون وجهات النظر « الكاثوليكية » فى تحقيق كل فلسفة تبحث فى الأصول ، ومنها أصل المادة وأصل العقيدة وأصل الانسان وأصل النظام الاجتماعى وما يتشعب عن هذه الأصول من البحث فى مشكلة الشر وتاريخ الكنيسة ورأس المال والمادية الماركسية وغيرها من مشكلات الانسان التى تتوالى فى كل زمان بأسلوب وعنوان .

* * *

وقد استفاد مألفو هذه المجموعة من جميع المعارك العلمية التى انتشرت بعد الحرب العالمية الأولى ، ولم تكن متداولة بين الكتاب اللاهوتيين فى الربع الأول من القرن العشرين ، وأمعنوا فى التفصيلات التشريحية التى كانت مجملة فى الفوارق الواسعة بين تركيب القرد وتركيب الإنسان ، ولا سيما الفارق المميز للإنسان الناطق .. وهو قوام الفصل بين النوع الآدمى وعامة الأنواع العليا .. فهذا الفارق الواسع فى الملكات العقلية يقابله فارق دقيق فى تكوين الدماغ ، يبيِّن استحالة النطق بغير هذا التركيب الإنسانى الخاص بدماغ الإنسان دون سواه : فالرأس الإنسانى يحتوى جميع المناطق التى وضعناها فى رءوس القردة ، ولكنها تتخصص بمناطق أخرى تسمى بالمناطق الثانوية .. أبرزها تلك المنطقة الخاصة بمراكز الألفاظ الكلامية ، وهى مستحيلة بغير الاتصال الوثيق بأجهزة الكلام من عضلات الوجه والفم والبلعوم مع جهاز التنفس سواء من جانب حركات الحس ومراكز اللمس والسمع بل البصر كذلك .. فهناك مركز للنطق فى مقدمة مراكز الحركة فى الوجه ، ومراكز بصرية للكلام فى المنطقة الجدارية ، ومراكز سمعية فى الفص الصدغى ، وفقدان مراكز الحركة يستتبع العجز عن الحركات المتقابلة الضرورية للنطق بغير

---

(١) God, Man and the Universe

تعطيل عمل اللسان والشفتين .. كذلك تستتبع آفات البصر عجزا عن قراءة الكلمة المكتوبة ، كما تستتبع آفات السمع عجزا عن فهم الكلمة الملفوظة وإن تيسر سماعها . ويضاف إلى هذه المراكز مراكز أخرى خلفية يرى بعضهم أنها مقر لأدق الوظائف السيكولوجية .. ولا يوجد غير الشمبانزى بين القردة المعاصرة حيوان له مناطق ثانوية ذات امتداد جد ضعيف » .

* * * *

وعلى هذه الوتيرة المطردة يؤدى هؤلاء العلماء اللاهوتيون أمانة « العلم الطبيعى » لإبراز مواضع الشبهة فى أدلة مذهب النشوء وقرائنه التى ترتفع إلى قوة الدليل ، فهم يوسعون الفارق غاية التوسع المحتمل فى حدود المقررات العلمية ، ولا يدعون فارقا خفيا منها وضحوه وكبروه وبلغوا به غاية الشك ، وباعدوا غاية البعد بينه وبين مرجحات اليقين ، ولم يقصروا ذلك على الأدلة أو القرائن التى يستند إليها النشوئيون للقول بتحول النوع الانسانى من الأنواع الدنيا . . بل شملوا به كل دليل وكل قرينة تدعم فروض التحول بين نوع ونوع من الحشرات والأسماك والزواحف والطيور والفقاريات، ومنها المتسلقات وغير المتسلقات . .

* * *

وقوبل مذهب النشوء باعتراض شديد بين علماء الطبيعة الذين ناقشوه بالأدلة العلمية ، وطلبوا من دعاته دليلا محسوسا على فعل الانتخاب الطبيعى فى تحول الأنواع ، ولا سيما نوع الانسان . . فالمعترضون عليه – طلبا للأدلة الطبيعية – لا يقلون عددا ولا اعتراضا عن المعترضين اللاهوتيين. وقد أيده أناس من كبار علماء الطبيعة وتحمسوا لتأييده ، فكان تحمسهم له باسم حرية الرأى أشد من تحمسهم له إيمانا بحقيقته واعترافا بكفاية براهينه. فمن هؤلاء العلماء–بل من أشدهم حماسة له–توماس هكسلى صديق دارون وصهره ومدره[1]المذهب كله فى حياته، فإنه لم يزعم قط أن أدلة الانتخاب الطبيعى المؤيد لتحول الأنواع كافية لتقرير هذه النتيجة ،

---

(١) مدره القوم والمذهب هو المدافع عنه الذي يدرأ عنه كل هجوم وعدوان .

وإنما كان يقول إن الانتخاب الطبيعي يفسر لنا جملة من الظواهر والمشاهدات تبقى بغير تفسير لو لم نتقبل مبادىء الانتخاب الطبيعي كما عرضها دارون بعد تعديله لآراء لامارك.ويرى العالم البيولوجي الكبير أن نظرية التطور على أساس الانتخاب الطبيعي ، إنما هي نظرية منطقية وليست بالنظرية التي تعتمد على شواهد التجربة والأدلة الحسية . قال في رده على هربرت سبنسر : « إننا لن نستطيع أن نثبت بالمشاهدة عملية الانتخاب الطبيعي » وأن قول هربرت سبنسر « إنه إما أن تحدث وراثة للصفات المكتسبة أو لا يحدث تطور على الإطلاق » إنما هو دليل منطقي وليس بالدليل التجريبي ، وهو مع ذلك ليس بالدليل الملزم في قضايا المنطق ، لأن تعليل التطور بغير وراثة الصفات المكتسبة ليس بالفرض المستحيل .

* * *

وبقيت هذه العقدة عصية الحل على القائلين بالتحول النوعي إلى اليوم ، فلم يتقدم أحد من النشوئيين عند الاحتفال بذكرى كتاب أصل الأنواع (١٩٥٨) بدفع حاسم لشكوك المترددين في قبول تحول الأنواع . وقد كتب دوبزانسكى Dobzansky أشهر المختصين بالبيولوجية النوعية فصلا عن الأنواع بعد دارون في مجموعة : « قرن من دارون »[1] فلم يحاول تهوين القضية ، ولكنه زاد أسبابا جديدة لبيان الصعوبات التي تحول دون تلاقي الناسلات والصبغيات في أرحام أفراد الحيوان المتميزة ، وزاد أسبابا أخرى لبيان الصعوبات التي تحول دون تلاقي الفردين من نوع واحد أخذ في التباعد والاختلاف ، ومن ذلك نقص الألفة بين الذكور والإناث كلما ابتعدت أشكالها ولو بقيت ناسلاتها وصبغياتها قابلة للتزاوج والانقسام إلى تمام تكوين الجنين .

* * *

وآخر ما نعلم من أطوار هذه المشكلة أن البحث عن الحلقة المفقودة ، ينتقل الآن من سلسلة الأنواع إلى سلسلة الناسلات Genes والصبغيات .. وأن الأمل في الوصول إلى هذه الحلقة من استقصاء تاريخ الناسلات phylogeny أقرب في رأي

---

(١) A century of Darwin من مطبعة هاينمان Heinemann

البيولوجيين من استقصاء تاريخ الأنواع ، وقد ألف الأستاذ برنارد رينش أستاذ علم الحيوان بجامعة ميونستر كتابه عن «التطور فوق مستوى الأنواع»(١) ليشرح هذه الفكرة ويبين أن عزل النوع إنما يتم بانعزال ناسلاته وأن البحث فى تاريخ تغير الناسلات هو مرجع البحث الأصيل للوصول إلى الحلقة التى تفصل بين ماتقدمها وما تلاها ، وتنشىء شروطا جديدة للنسل والوراثة فتعتبر بذلك حدا فاصلا بين نوعين .. فليس من السهل أن ننتظر تحول الأنواع بعد تطورها وابتعاد أواخرها من أوائلها الموغلة فى القدم ، ولكننا إذا اكتشفنا سر تطور الناسلات وانعزالها بخصائص التوريث دفعة واحدة أو على درجات متقاربة فها هنا محل الحلقة المفقودة فى سلسلة الأنواع .

---

(١) Evolution above the Species Level

مذهب التطور في الشرق العربي

من خصائص مذهب داروين – على ما يظهر – أن يشيع على نحو واحد قبل الوقوف على شروحه وبراهينه ، وأن يثير ضروبا متقاربة من الاعتراض فى مواطن العقيدة والثقافة العامة .. فإنه لقى فى الشرق العربى مثل ما لقيه من التحريف والاعتراض فى البلاد الأوربية ، وتتابعت أدوار السماع به ثم الاشاعة عنه ثم الرد عليه بين المفكرين وقراء العلم الشرقيين كما تتابعت قبل ذلك بين مفكرى الغرب وقرائه ، وتكرار هذا كله فى الشرق العربى كأنه يحدث للمرة الأولى ، ولم تنقشع شبهاته عن حقائقه إلا بعد الثورة المفاجئة التى يظهر – كما أسلفنا – أنها مقدمة لابد منها وأثر من آثار الصدمة الشعورية المفاجئة لا محيص عنه .

وقد تصدى للرد عليه فى الشرق الاسلامى عامة ، والشرق العربى خاصة ، نخبة من المفكرين وقادة الاصلاح والمجتهدين من أتباع جميع الأديان الكتابية ، وناقشوه كما شاع لأول وهلة بين الغربيين من قبل كأنه مذهب يستلزم إنكار الخلق ويزعم أن القردة جدود البشر أجمعين ، فكل إنسان حديث فهو نسل متأخر لقرد قديم .

وقلما يتصور القارئ العصرى أن مذهبا كمذهب التطور يشيع فى الشرق العربى قبل مائة سنة ، ويتصدى للرد عليه عدد من الكتاب كذلك العدد الذى بقيت لنا بعض كتاباته وانطوى أكثرها فى زوايا المطبوعات المهجورة من المصنفات والنشرات الصحفية .. لأن القارئ العصرى يحسب أن مذهب التطور قد وصل إلى الأمم الشرقية وهى فى « جاهلية » لا تبلغها دعوة عالم أو مفكر من أبناء الأمم الأجنبية ، ولكن الواقع أن « جاهلية » القرن التاسع عشر لم تكن فى شرقنا العربى حجابا دون المذاهب الفكرية التى يطلع عليها الأوربى المثقف فى حينها ، ولم يكن مذهب كمذهب التطور لينعزل فى حيز محدود بين جدران وطن واحد وهو يتحدث عن نسب الإنسان حيثما كان ، فى زمن لم يتحدث فيه الناس عن شىء كما تحدثوا عن مفاخر الأمم بالأصول الإنسانية وبالأنساب التى يدعيها السادة لأنفسهم وينكرونها على الرعايا المستعبدين .

* * *

وسنختار فى هذا الفصل أمثلة من مناقشة المذهب كما فهمه فى ذلك العصر أصحاب الاجتهاد ورواد الفكر من المسلمين والمسيحيين، ومنهم أهل السنة والشيعة، وأتباع الكنائس الشرقية والغربية فى بلاد العالم العربى ، وقد وصلت أصداء الردود التى كتبها المشهورون من أولئك المفكرين إلى أطراف البلاد الاسلامية فى الهند والصين .

قال السيد جمال الدين الأفغانى من أئمة المصلحين من أهل السنة فى كتاب الرد على الدهريين :

« .. رأس القائلين بهذا القول داروين وقد ألف كتابا فى بيان أن الانسان كان قردا ثم عرض له التنقيح والتهذيب فى صورته بالتدريج على تتالى القرون المتطاولة وبتأثير الفواعل الطبيعية الخارجية حتى ارتقى إلى برزخ أوران أوتان ، ثم ارتقى من تلك الصورة إلى أول مراتب الانسان فكان صنف النيمنم وسائر الزنوج ، ومن هناك عرج بعض أفراده إلى أفق أعلى وأرفع من أفق الزنجيين فكان الانسان القوقاسى

« وعلى زعم داروين هذا ، يمكن أن يصير البرغوث فيلا بمرور القرون وكر الدهور ، وأن ينقلب الفيل برغوثا كذلك .. فإن سئل داروين عن الأشجار القائمة فى غابات الهند والنباتات المتولدة من أزمان بعيدة لا يحدها التاريخ ، إلا ظنا ، وأصولها تضرب فى بقعة واحدة وفروعها تذهب فى هواء واحد وعروقها تسقى بماء واحد ، فما السبب فى اختلاف كل منها عن الآخر فى بنيته أو أشكال أوراقه وطوله وقصره وضخامة ورقته وزهره وثمره وطعمه ورائحته وعمره ، فأى فاعل خارجى أثر فيها حتى خالف بينها مع وحدة المكان والماء والهواء ؟ .. أظن لا سبيل إلى الجواب سوى العجز عنه ..

« وإن قيل له هذه أسماك بحيرة أورال وبحر كسبين تشاركها فى المأكل والمشرب وتسابقها فى ميدان واحد ، ترى فيها اختلافا نوعيا وتباينا بعيدا فى الألوان والأشكال والأعمال – فما السبب فى هذا التباين والتفاوت ، فلا أراه يلجأ فى الجواب إلا إلى الحصر ..

«وهكذا لو عرضت عليه الحيوانات المختلفة البنى والصور والقوى والخواص ، وهى تعيش فى منطقة واحدة ولا تسلم حياتها فى سائر المناطق من الحشرات المتباينة

فى الخلقة ، المتباعدة فى التركيب ، المتولدة فى بقعة واحدة ، ولا طاقة لها على قطع المسافات البعيدة .. فماذا تكون حجته فى علة اختلافها .. بل إذا قيل له أى هاد هدى تلك الجراثيم فى نقصها وخداجها .. وأى مرشد أرشدها إلى استتمام هذه الجوارح والأعضاء الظاهرة والباطنة ووضعها على مقتضى الحكمة وابداع كل منها قوة على حسبه ونوطها بكل قوة فى عضو أداء وظيفته وإيفاد عمل حيوى مما عجز الحكماء عن درك سره ، ووقف علماء الفسيولوجيا دون الوصول إلى تحديد منافعه ، وكيف صارت الضرورة العمياء معلما لتلك الجراثيم وهاديا خبيرا لطرق جميع الكمالات الصورية والمعنوية .. فلاريب أنه يقبع قبوع القنفد وينتكس بين أمواج الحيرة ، يدفعه ريب ويتلقاه شك إلى أبد الآبدين ..

« وكأنى بهذا المسكين وما رماه فى مجاهيل الأوهام ومجاهيل الخرافات إلا قرب المشابهة بين القرد والانسان ، وكان ما أخذ به من الشبهة الواهية ألهية يشغل بها نفسه عن آلام الحيرة وحسرات العماية .

« وإنا نورد شيئا مما تمسك به ، فمن ذلك أن الخيل فى سيبيريا وبلاد الروسية أطول وأغزر شعرا من الخيل المولدة فى البلاد العربية ، وإنما علة ذلك الضرورة وعدمها . ونقول : إن السبب فيما ذكره هو عين السبب لكثرة النبات وقلته فى بقعة واحدة لوقتين مختلفين حسب كثرة الأمطار وقلتها ووفور المياه ونزورها أوجد علة النحافة ودقة العود فى سكان البلاد الحارة .. والضخامة والسمن فى أهل البلاد الباردة بما يعترى البدن من كثرة التحلل فى الحرارة وقلته فى البرودة ..

« ومن واهياته ما كان يرويه داروين من أن جماعة كانوا يقطعون أذناب كلابهم ، فلما واظبوا على عملهم هذا قرونا صارت الكلاب تولد بلا أذناب .. كأنه يقول حيث لم تعد للذنب حاجة كفت الطبيعة عن هبته ، وهل صمت إذن هذا المسكين عن سماع خبر العبرانيين والعرب وما يجرونه من الختان ألوفا من السنين ، لا يولد مولود حتى يختن وإلى الآن لم يولد واحد منهم مختونا إلا لإعجاز

« ولما ظهر لجماعة من متأخرى الماديين فساد ما تمسك به أسلافهم ، نبذوا آراءهم وأخذوا طريقا جديدة .. فقالوا ليس من الممكن أن تكون المادة العارية عن الشعور مصدرا لهذا النظام المتقن والهيئة البديعة والأشكال العجيبة والصور الأنيقة

وغير ذلك مما خفى سره وظهر أثره ، ولكن العلة فى نظام الكون علويه وسفليه .. والموجب لاختلاف الصور والمقدر لأشكالها وأطوراها وما يلزم لبقائها تتركب من ثلاثة أشياء : متيير ، وفورس ، وانتليجانس ، أى مادة وقوة وإدراك ، وظنوا أن المادة بما لها من القوة وما يلامسها من الإدراك تجلت وتنجلى بهذه الأشكال والهيئات، وعندما تظهر بصـــورة الأجساد الحية نباتية كانت أو حيوانية تراعى بما يلابسها من الشعور وما يلزم لبقاء الشخص وحفظ النوع ، فتنشىء لها من الأعضاء والآلات ما يفى بأداء الوظائف الشخصية والنوعية مع الالتفات إلى الأزمنة والأمكنة والفصول السنوية . هذا أنفس ما وجدوا من حلية لمذهبهم العاطل بعد ما دخلوا ألف جحر وخرجوا من ألف نفق ، وما هو أقرب إلى العقل من سائر أوهامهم ولا هو بالمنطبق على سائر أصولهم ، فانهم يرون كسائر المتأخرين أن الأجسام مركبة من الأجزاء الديمقراطيسية – نسبة إلى ديمقراطيس – ولا ينطبق رأيهم الجديد فى هذا النظام الكونى على رأيهم فى تركيب الأجسام ، وذلك لأنه يلزم عن القول بشعور المادة أن يكون لكل جزء ديمقراطيسى شعور خاص ، كما يلزم أن تكون له قوة خاصة ينفصل بها عن سائر الأجزاء ، إذ لا يمكن قيام العرض الواحد وحدة شخصية بمحلين ، فلا يقوم علم واحد بجزئين ولا بأجزاء ..

« وبعد ذلك فانى سائلهم كيف اطلع كل جزء من اجزاء المادة مع انفصالها على مقاصد سائر الأجزاء . وبأية آلة أفهم كل منها باقيها بما ينويه من مطلبه ؟ .. وأى برلمان أو أى سنات – مجلس شيوخ – عقدت للتشاور فى إبداع هذه المكونات العالية التركيب البديعية التأليف ؟ .. وأنى لهذه الأجزاء أن تعلم وهى فى بيضة العصفور ضرورة ظهورها فى هيئة طير يأكل الحبوب فمن الواجب أن يكون له منقار وحوصلة لحاجته فى حياته إليهما ؟ ...»

* * *

وبعد كتابة « الرد على الدهريين » بنحو ثلاثين سنة ، ظهر كتاب نقد « فلسفة دارون » لمؤلفه الشيخ « محمد رضا آل العلامة التقى الأصفهانى » وهو باحث فاضل من علماء الشيعة بكربلاء المعلى ، تحرى النظر فى مجموعة وافية من مراجع مذهب النشوء العربية والأفرنجية التى وصلت إلى الشرق الإسلامى بعد كتابة « الرد على

الدهريين » ولم يقنع بما اطلع عليه من هذه المراجع ، بل أرسل فى طلب غيرها من المراجع المستحدثة ، ولكنه ألف كتابه ولم ينتظر وصولها إليه لولا « الباعث الدينى » كما جاء فى مقدمة الكتاب حيث يقول إن داروين وسائر رؤساء هذه الفلسفة ألفوا كتبا غير موجودة عندنا «وكان الحزم تأخير تصنيف هذا الكتاب إلى زمن وصولها لولا الباعث الدينى وظننا أنه يوجب علينا المسارعة ولا يبعد أن يكون قد منعنا صغرى دليل قد فزع هؤلاء من إثباته أو كبرى حجة مذكور فى كتبهم برهانا ، وأنا أقترح عليهم أن يخابرونا بما يجدونه منه ومن أمثاله لننظر فيه ، ولهم علينا أن نستعمل الإنصاف لا المكابرة» .

ولم يقصد المؤلف بالباعث الدينى أن يقصر ردوده على مناقشة الآراء التى تخالف الديانة الإسلامية دون سائر الديانات ، ولكنه أراد أن ينقض أدلة الالحاد التى تعارض الايمان بالله وبالعقائد الالهية على إجمالها ، وقد قال فى كلمته الخاصة بالمؤمنين : « ليعلم أن كتابى هذا موضوع للدفاع عن الدين المطلق فى قبال اللادين المحض ، لا للانتصار لدين على دين .. ولهذا ترانى أدفع ما استطعت عن أديان لا أنتحلها ومذاهب لا أقول بها ، لأن أحد هؤلاء لا يثلب دينا إلا وقصده ثلب الأديان عامة ولا يزرى على شريعة إلا ليسرى ازراؤه إلى الشرائع قاطبة .. »

وأنصف المؤلف مذهب النشوء،فلم يحسبه من مذاهب الالحاد والتعطيل لأن القول بالنشوء لا يقتضى إنكار الخالق وإنما يتسرب إليه الالحاد من تفسيرات الماديين لمقدماته على الوجه الذى يوافق نتائجهم المقررة عندهم قبل ظهوره ، فيقول المؤلف عن فلسفة النشوء والارتقاء إنها « ليست مما ينافى الدين ، إذ الذى يجب علينا اعتقاده هو أن جميع الموجودات بأراضيها وسماواتها وما فيها من صنوف المخلوقات من نباتاتها وحيواناتها ، والبشر على صنوفها واختلاف لغاتها ، صنع إله واحد قادر حكيم قد وسع كل شئ علما وأتقنه صنعا .. خلق جميع الأصناف من جميع الأنواع عن قصد واختيار ، وهذا أمر متفق عليه فى جميع الأديان ، وأما كيفية الخلق وأن هذه الأنواع كلها خلقت خلقا مستقلا ، ووجدت من كتم العدم ابتداء ، وأنها لم تتغير عما وجدت عليه فى أوائل الخلق ، فهذا أمر لم يرد فيه نص صريح من الكتاب ولا متواتر من السنة ، وسواء كانت آباء الجمل جمالا أو كانت ضفادع تنق فى الماء ،

والجد الأعلى للفيل فيلا أو « سنونوا » يطير فى الهواء ، فان أدلة الصنع عليهما فى الحالين ظاهرة ، وفيها على وجود الصانع الحكيم آيات باهرة . ففرصة الملاحدة بهذه الآراء وجعلها أساسا للالحاد من أغرب الأشياء »

ثم يقول المؤلف إن هذه الآراء « ليس فيها إلا بيان ترتيب المخلوقات وكيفية الصنع فيها ، ومتى كان أهل الدين ينكرون ذلك ويدعون أن الله تعالى خلق جميع الأشياء فى وقت واحد خلقا مستقلا عن الآخر؟ .. وهم يرون الله تعالى بلطيف حكمته وبديع صنعته يخلق الثمر من الشجر ، والشجر من النواة ، ولا يجعل العنب حلوا إلا بعد ما يجعله حامضا ولا يجعله حامضا إلا بعد ما يجعله مرا » .

ويستطرد المؤلف إلى تلخيص آراء النشوئيين الذين آمنوا بالخالق ، ثم يرجع إلى أقوال الأقدمين من الهمج الذين انتسبوا إلى القردة كما انتسبوا إلى غيرها من الحيوان، ويرجع بعـــد ذلك إلى أقوال أئمة المسلمين الذين عرفوا الشبه بين الانسان والقرد ، ولم يذهبوا مذهب دارون فى تعويله على وجوه الشبه وإعراضه عن وجوه الخلاف فيقول : « إن أئمة المسلمين وعلماءهم ذكروا ما هو أغرب وأقرب » ويستشهد بكتاب التوحيد الذى أملاه الامام جعفر الصادق على المفضل بن عمر الجعفى ، ومنه على رواية المؤلف : « تأمل خلق القرد وشبهه بالانسان فى كثير من أعضائه ، أعنى الرأس والوجه والمنكبين ، وكذلك أحشاؤه أيضا شبيهة بأحشاء الانسان ، وخص مع ذلك بالذهن والفطنة التى بها يفهم من سائسه ما يومئ إليه ، ويحكى كثيرا مما يرى الانسان يفعله ، حتى أنه ليقرب من خلق الانسان وشمائله .. أن يكون عبرة للانسان نفسه فيعلم أنه من طينة البهائم وسنحها ، إذ كان يقرب من خلقها هذا القرب ، وإنه لولا فضيلة فضل بها فى الذهن والعقل والنطق كان كبعض البهائم .. على أن فى جسم القرد فضولا أخرى تفرق بينه وبين الانسان كالخطم والذنب المسدل والشعر المجلل للجسم كله ، وهذا لم يكن مانعا للقرد أن يلحق بالانسان لو أعطى مثل ذهن الانسان وعقله ونطقه »

وينتقل المؤلف إلى كلام الدميرى ، إذ يقول عن القرد إنه « أشبه الانسان فى غالب حالاته ، فانه يضحك ويطرب ويغنى ويحكى ويتناول الشئ بيده وله أصابع مفصلة إلى أنامل وأظافر ، ويقبل التلقين والتعليم ويأنس بالناس ويمشى على رجليه

حينا يسيرا ، ولشعر عينيه الأسفل أهداب ، وليس ذلك لشئ من الحيوان سواه فهو كالانسان ، ويأخذ نفسه بالزواج والغيرة على الإناث ، وهما خصلتان من مفاخر الانسان ، فاذا زاد به الشبق استمنى بفيه ، وتحمل الأنثى أولادها كما تحمل المرأة .. وفيه من قبول التأديب والتعليم ما لا يخفى .. »

ويذكر المؤلف أن اخوان الصفاء بلغوا بوصف هذه المشابهة ما لم يبلغه دارون ، حيث قالوا ان القرد « لقرب شكل جسمه من جسد الإنسان صارت نفسه تحاكى النفس الإنسانية » ثم يعقب على هذه التشبيهات جميعا ، فيقول ان الإنسان — كما يشابه القرد فى أشياء — يشابه غيره من الحيوان فى غيرها « بل لعل فى الحيوانات الدنيا من شبه الإنسان أقساما لا توجد فى العليا ، فلا يصح الاعتماد على مجرد المشابهة .. وهذا الأستاذ الشهير «كوفييه» يقول ان ادراك القرد ليس أرقى من ادراك الكلب الا قليلا .. واذا سلمنا ان من لوازم المشابهة التحول ، فكيف يتعين تحول الإنسان عن حيوان نشأ عنه القرد ؟ .. فلعل الإنسان تحول قردا .. وهذا ما نص عليه الذكر الحكيم » .

وبعد مناقشة المؤلف قرينة الشبه الظاهر بين الإنسان والقرد ، مضى يناقش القرائن الأخرى التى يستند إليها النشوئيون للقول بتحول الأنواع وتحول النوع الإنسانى من بينها ، عن أصله المشترك بينه وبين الفقاريات العليا ، فنهج فى مناقشته على هذا المنهج الذى يستمد الدليل من أصول الجدل المنطقى تارة ومن تجارب للواقع تارة أخرى ، وأفادته مطالعاته المتفرقة لمراجع المذهب .. فلم يخطئ مواضع الحجة الواقعية أحيانا ، مع اعتماده الغالب على منهج النقائض الجدلية . ومن قبيل ذلك انه عمد إلى دليل من أقوى أدلة النشوئيين وهو بقاء الأعضاء الأثرية — كالثندوة — فى ذكور الإنسان ، فتساءل : « لا أدرى لماذا بقى أثر عار الخنوثة ظاهرا فى الإنسان ، ولم يبق فيما هو أدون منه فى سلم الارتقاء كذوات الحافر » ولم ينس أن يستدرك على هذا الاعتراض بما أسنده إلى ما قال الشيخ الرئيس فى الشفاء « ان الفيل الذكر له ثدى كما للانسان ، وذكور ذوات الحافر لا ثدى لها إلا ما يشبه أمهاتها وينزع إليها كما يعرض مرارا فى الخيل » ..

وجملة رأى المؤلف أن ما يسمى بالأعضاء الأثرية يدخل فى باب

« الشذوذات » التى تعرض لتركيب بعض الأحياء ، وهى أجنة فى بطون أمهاتها ، أو تعرض لها خلال نموها ، وعدد من ذلك ما يولد وله أربع أيد ، أو ما يولد وله جوف واحد ورأسان وأربع أقدام ، أو ما يولد وقلبه فى غير موضعه ، ثم قال متسائلا : « فهل يمكن تعليل هذه الشواذ المشنوعة بحيوانات كانت كذلك فى العصور الجيولوجية فانتقلت إلى هؤلاء التعساء بناموس « الأتافيسيم » ؟ .. فإن لم يمكن ذلك فلتكن الشواذ التى فيها بعض الشبه بالحيوانات من هذا القبيل » .

ومنهج المؤلف فى نقد الانتخاب الجنسى – وهو سبب هام من أسباب التطور – كمنهجه فيما تقدم ، فهو يبدأ بالانتخاب الجنسى فى النبات ويسأل : كيف يقع الانتخاب الجنسى بين النباتات التى لا يتوقف تلقيحها على الحشرات والطيور ؟ .. وكيف تميز الحشرات والطيور ما هو جميل وما هو أجمل ؟ .. ثم يقول : « ان العجماوات قليلة الادراك لما فى المصنوعات الجميلة من الجمال حتى أن بعضهم جعل ذلك أعظم فارق بين الإنسان وبينها ، وكان الأستاذ هكسلى ممن يذهب هذا المذهب » .

قال : « ثم هب أن هذه الحيوانات الملحقة عذرية الهوى والغرام ، وهائمة بالجمال كعروة بن خزام .. ولكنها لا تريد مغازلتها بل تطلب رزقها المقسوم لها ، وعند أى نبات وجدته لقحته حسنا كان أو قبيحا فلا أدرى بم يعلل هذا الحسن والانتظام فى الفواكه والأثمار وما فيها من الطعم المحبوب والنكهة الطيبة ونحوهما مما لا يوجد إلا بعد التلقيح » .

ثم أنحى المؤلف على أساس مذهب التحول ، لأنه قائم على افتراض تعدد الأنواع بعد انفرادها أو قلتها ، وليس هذا الافتراض باللازم ضرورة من قياس العقل ولا من نتائج الواقع : « ومن الطريف فى هذا الرأى أنه كما يمكن أن يعلل به القول باتحاد أصول الأنواع أو قلتها ، كذلك يمكن القول بعكس ذلك والتعليل له أيضا ، فيقال إن أصول الأحياء كانت فى بدء الخلق أفرادا متباينة بأقصى ما يكون من التباين وعدم التشابه ، فلم يزل كل حى يخلف نسلا يشبهه بناموس الوراثة ويباينه بناموس المباينة لكن بما يقربه إلى فرد آخر ، فلم تزل تلك المباينات مع الأجداد تزيد المشابهات مع سائر الأفراد ، وتنازع البقاء يلاشى الضعيف ، والطبيعة تنتخب القوى حتى صارت التباينات التى قلنا انها مع غير المشابهات ثابتة ، فتألفت منه

الأنواع الموجودة .. وله شواهد على مذهب هؤلاء ، فالحية مثلا تعد الآن من جنس الدبابات ولا تجتمع معهاف الأصل بل أصلها من ذوات الأرجل ، وقل مثله فى الحيوانات المنحطة التى يذكرها بخنر وغيره ، فانها الآن تؤلف جنس المنحطات وهى بعيده فى الأصل منها .. » .

قال : « وهذا الاحتمال .. وان لم أجد أحداً قال به فى أصول الأنواع ، ولكنه أحد القولين المشهورين فى أصل اللغات .. وعند العلماء مذهبان شهيران : الأول أن لغات البشر متشابهة ، وهى كلها من أصل واحد .. وهذا الأصل قد تفرع وتنوع فتولت منه لغات البشر المختلفة ، فما اللغات سوى لهجات من لغة واحدة ولكنها بعدت عن الأصل كثيرا وتغيرت بالزيادة والنقصان والنحت والحذف حتى بعدت بعضها عن بعض هذا البعد الشاسع ، وتعذر رد بعضها إلى بعض لفقد الحلقات الكثيرة من بينها . والمذهب الثانى أنه كانت للغات البشر أصول مختلفة بحسب عدد طوائفها ، وأنه مع الزمان اقتربت هذه اللغات بعضها من بعض فتمازجت وتشابهت بتمازج أهلها وتشابههم الخ .. وعند الكاتب أن المذهب الثانى أقرب إلى الصحة وأقدر على حل المشكلات من الأول .. » .

وتابع المؤلف بحثه فى النشوء ، فاستطرد منه إلى البحث فى الارتقاء وسأل : « أى معنى لارتقاء ذوات الأربع عن الطيور ، وارتقاء الإنسان عن ذوات الأربع ، مع اشتراك الكل فى حصول التغير ؟ » ..

وانتهى المؤلف إلى أن المذهب كله ناقص الاسناد ، لاتوجد فيه حجة قاطعة غير قرائن الترجيح والتغليب ، ولا غنى له عن المزيد من البحث والتنقيب ، كما قال بعد أكثر من خمسمائة صفحة على هذا المنهج مستندا إلى قول فيرسو العالم الألمانى : « انه فى بعض طوائف الناس صفات يشاركهم القرد فيها ، كما فى بروز الفك وفطس الأنف مما يجعل العلاقة قريبة بين تلك الطوائف والقرود حتى يحتمل ارتقاؤها من القرود ، ولكن بين الاحتمال والقطع بونا شاسعا لأن الصفات المشار إليها لا تقوم نوع القرد بل المقوم له خواص أخرى ، وكل قدة من جلده كافية لتمييز نوعه من غيره من الأنواع ، ولا أظن أن واحدا من المشرحين يرتاب فى ذلك ، والفرق بين الإنسان والقرد واضح جدا حتى أن كل قطعة من الواحد كافية ليستدل منها على النوع

المقطوعة منه .. فالأدلة على النشوء الفعلى قاصرة جدا لا يبنى عليها حكم ، ولا بد من أن يزيدنا البحث والتنقيب للوقوف على أدلة أخرى قوية ..» .

* * *

ويتبين من مراجعة « المكتبة النشوئية » فى الشرق العربى ان الاهتمام بالمذهب كان على أشده بين أتباع الكنائس الكاثوليكية والكنائس الانجيلية ، لأنها هى الكنائس التى تصدى علماء اللاهوت منها لمناقشة مذهب دارون عند اعلانه فى موطن ظهوره ، وشاركهم فى ذلك علماء الطبيعة المسيحيون ممن أنكروا المذهب واستندوا فى انكاره إلى الأدلة العلمية ، وطالبوا النشوئيين بمزيد من الأدلة القاطعة لإثبات نظرياتهم لأنها نظريات تنقض بعض المقررات الدينية ، ولا يكفى فى مثل هذه الحالة أن تستند النظرية إلى الترجيح والتغليب أو إلى الظن والتقدير ، وقد يعزى إلى هذا السبب كثرة الدراسات التى تعرضت لمذهب النشوء من الناحية الدينية أو من الناحية العلمية بأقلام فضلاء الكنائس الكاثوليكية والانجيلية من كتاب اللغة العربية ، وبخاصة فى البلاد التى كان اللاهوتيون يشرفون على معاهد التعليم فيها ويأخذون بزمام ثقافتها وآدابها .

ونحن نختار هنا من الدراسات النشوئية التى كتبت باللغة العربية ، ولا نستقصيها لكثرتها وخروج معظمها عن موضوعه .. ولم نجد بينها ما هو أولى من دراسات الأساتذة ابراهيم الحورانى ، والأب جرجس فرج صغير المارونى ، والأسقف خير الله اسطفان ، والدكتور حليم عطيه سوريال ، ومنهم من كتب عن هذا المذهب قبل خمس وسبعين سنة ، وأحدثهم كتابة عنه من تصدى لمناقشته بعد ظهور كتب الدكتور « شبلى شميل » فى موضوعه ، وهى مؤيدة للنشوئيين المنكرين للأديان .

فالأستاذ ابراهيم حورانى — وهو عالم لغوى مطلع على المباحث العلمية — ألف فى الرد على مذهب دارون رسالة « مناهج الحكماء فى نفى النشوء والارتقاء» ثم اتبعها برسالة.« الحق اليقين فى الرد على بطل داروين» وطبعها ببيروت (سنة ١٨٨٦) ردا على مناقشة الدكتور « شبلى شميل » لرسالته الأولى ، فصب حملته الكبرى على موطن الضعف فى المذهب وهو افتقاره إلى الدليل القاطع وتعويله

على الشواهد التى توحي بالرأى ، ولا تستأصل الشكوك أو تسكت المعترض المطالب بدليل لا يضعفه الاحتمال .

وقد آثر الأستاذ حورانى أن يؤخر رأيه حتى يسوق بين يديه آراء علماء الطبيعة المخالفين لدارون فى القول بتحول الإنسان عن غيره من الحيوان ، قال « ان العلماء لم يثبتوا مذهب دارون ، وكذلك نفوه وطعنوا فيه مع علمهم أنه بحث فيه عشرين سنة ، ومنهم العلامة ونشل مع أنه من أشد الناس ميلا إلى القول بالارتقاء بفعل الله .. ومنهم العلامة ولاس قال ما خلاصته أن الارتقاء بالانتخاب الطبيعى لا يصدق على الإنسان ولابد من القول بخلقه رأسا .. ومنهم الأستاذ فرخو قال انه يتبين لنا من الواقع أن بين الإنسان والقرد فرقا بعيدا ، فلا يمكننا أن نحكم بأن الإنسان سلالة قرد أو غيره من البهائم ، ولا يحسن أن نتفوه بذلك .. ومنهم « ميفرت » قال بعد أن نظر فى حقائق كثير من الأحياء أن مذهب دارون لا يمكن تأييده وانه رأى من آراء الصبيان .. ومنهم العلامة فون بسكوف ، قال بعد أن درس هو وفرخو تشريح المقابلة بين الإنسان والقرد أن الفروق بين البشر والقرود أصلى وبعيد جدا .. ومنهم العلامة أغاسيز ، قال فى رسالة فى أصل الإنسان تليت فى ندوة العلم الفكتورية ما خلاصته ان مذهب داروين خطأ علمى باطل فى الواقع ، وأسلوبه ليس من أساليب العلم بشئ ولا طائل تحته .. ومنهم العلامة هكسلى وهو من اللاأدرية وصديق لداروين ، قال أنه بموجب ما لنا من البينات لم يتبرهن قط أن نوعا من النبات أو الحيوان نشأ بالانتخاب الطبيعى أو بالانتخاب الصناعى ، ومنهم العلامة تندل وهو كهكسلى قال انه لا ريب فى أن الذين يعتقدون الارتقاء يجهلون أنه نتيجة مقدمات لم يسلم بها .. ومن المحقق عندى أنه لابد من تغيير مذهب داروين » ..

ويقسم الأستاذ حورانى أنصار مذهب النشوء إلى ثلاث فرق : معطلة ولا أدرية والهية .. « أما المعطلة فهى التى نفت الخالق سبحانه وقالت بقدم المادة .. وأما اللاأدرية فهى التى لم تتعرض لنفى الخالق ولا لإثباته ، وأما الالهية فهى التى اعترفت بالواجب تعالى ، وقالت بأنه خالق المادة والحياة وانقسمت هذه الفرقة إلى اثنين ،

ظنت إحداهما الإنسان ابن القرد أو صنوه ومنها داروين ، وقالت الأخرى بأن الله خلق الإنسان من البدء إنسانا ومنها العلامة ولاس ، وعلماء هذه الفرقة أصحاب النشوء الإلهى الذى قالت بإمكانه وصرحت بعدم البرهان على وقوعه وبأن عليه اعتراضات لم تدفع دفعا مقنعا » .

ثم أورد الأستاذ حورانى احصاء بعض علماء الحفريات عن الأنواع التى وجدت فى باطن الأرض ، فقال ان ثمانية وعشرين فى المائه منها أنواع لم تتغير ، وسبعة فى المائة أنواع مهاجرة ، وخمسة وستين فى المائة لا سلف لها . وأما الأنواع التى نشأت بالتغير أو الأنواع الجديدة ، فلا وجود لها فى شئ من بقايا الحفريات .

ويرد الأستاذ حورانى على استدلال النشوئيين بتشابه الأجنة بين الإنسان وبعض الحيوان ، فيقول ان علة هذا التشابه « بساطة التكوين وقصر النظر .. بدليل أن التباين يعظم على توالى اقترابها من كمال التكوين ، فلا ينشأ من بيوض الإنسان أو أجنته سوى أناس ، ولا ينشأ من بذرة اللوزة إلا لوزة » .

ويحيل النشوئيين إلى بحث التيرانولوجيا — أى المشوهات — لتفسير الأعضاء الأثرية التى تثبت بعد ولادة الجنين ، ومن أمثلتها « الأعنش » أى من له ست أصابع وهو من أبسط الأمثلة ، والأشوه المزدوج كهيلين وجوديث وهما الأختان الهنغاريتان المشهورتان ، كانتا ملتصقتين بالمتنين والأفخاذ والأحقاء ولدتا سنة ١٧٠١ وعاشتا اثنتين وعشرين سنة وكانتا مختلفتى السجايا والأخلاق .

وقال عن الانتخاب الطبيعى إنه لا يمكن « أن يكون أس الارتقاء الداروينى لأن الطبيعة إنما تؤثر فى الموجود ، وليس لها أن توجد المعدوم ، فيمكنها أن تعمى العيون .. ولكنها لا تستطيع أن توجد البصر » ويقتضى مذهب داروين أن لا تجمع الأنواع الدنيا والعليا بل تتعاقب وتسبق الأولى الثانية أبدا ، ولكن ذلك الاجتماع ثبت فى المنقرضات والأحياء »

وأضعف ما فى ردود الأستاذ حورانى قوله عن قدم الانسان ، إذ يقتضى مذهب داروين أن يكون الانسان قديما جدا « ولكنه تبين لأشهر العلماء وأكابرهم من النشوئيين وغيرهم أنه أحدث الأحياء وأنه كان منذ بضعة آلاف سنة ، وأثبت العلامة دوسون أنه كان فى ثانى العصر الجليدى وهو المعروف بالأكثر أحدثية ،

وفصل ذلك فى خطبة له فى الانسان قبل زمن التاريخ .. وقال الدكتور هويدن : نظرت أربع فرق مستقلة من الجيولوجيين فى زمن نشوء الانسان فاتفقت على أنه نشأ منذ ما بين ستة آلاف وسبعة آلاف سنة ..» .

* * *

وفى إبان احتدام المناقشة بين منكرى المذهب ومؤيديه ، أصدر الأب جرجس فرج صغير المارونى مدرس الفلسفة بالمدرسة اللبنانية فى قرية شهوان (١٨٩٠) كتابا نهج فيه منهج الحوار بين خصمين ، سمى أحدهما بالإنسان القردى وسمى الآخر بالإنسان الآدمى ، وأدار الحجاج بينهما على هذا المثال ، مع اختصار بعض التفصيلات :

الآدمى — أين تجدون أشكال الانتقال من يد قرد الى رجل إنسان .. أفهل عثر على ذلك أحد علمائكم ، فان لم تعثروا على شئ من ذلك ... فالانسان القردى لا يكون له وجود ..

القردى — إن المباحث البالونتولوجية « الحفرية » والحق يقال لم تأت بما يعرب عن تسلسل بين الانسان والقرد أو أحد أنواع الحيوانات .. على أن أساتذتنا قد أجمعوا على أنه من المحتمل أن من الحيوانات التى على شكل حصان البحر ما يتحول إلى حيوان قوائمه على شكل قوائم الخنزير ، وإن منها ما قد يتحول إلى الماعز ومنها إلى الخرفان .. الخ

الآدمى — فان كان ذلك من طوالع المحتمل لا من أمارات اليقين ، فأين العلم الحقيقى الذى تعولون عليه ..؟

القردى — نعم .. إننا لم نجد إلى الآن أثرا إلى الانسان القردى ، غير أن العلم لم ينه قضاءه

الآدمى — ولكن ماذا يكون هذا العلم الذى يقضى بخلاف الواقع ..فاننا نرى الأنواع لا تتغير عن ذاتها وإن كثرت فيها الأنسال ، فاذا قلت لا فارق بين النوع والنسل أسكتتك العلائم الفزيولوجية ونحن نحصرها فى أمر وهو النتاج

القردى — ومن يمكنه أن يرسم تخوم النوع والعلماء لا يكادون يتفقون على شئ منه ..؟

الآدمى — أو يكون الجهل فى أصل شئ أو فى علته حجة فى إنكار وجوده ، أفنفقه ما للعلائم الجوية والأرضية من الأسباب والعلائق .. ونحن مع ذلك لا ننكر وجودها .. إنا نعلم أن المولود من قران الفرس والحمار لا يكون إلا عاقرا ، فنقول : لابد من فرق نوعى فى مولده ، .. أفجهلنا فى رسم حدوده يمكننا من إنكار وجوده

القردى ... إلا أنى أعرف من أصحابكم من يقول بامكانية مذهب التحول ..

الآدمى — لا نجهل أن البعض من أصحاب الايمان يحبون أن يوفقوا بين التحول والايمان ، فيقولون : إن الله سبحانه قد جبل آدم من تراب قد عركه كثير من المولدين من الخازباز إلى آخر حيوان ذى أربع قوائم ، فأخذ الله هذا الحيوان الأخير من السلسلة المتحولة وهو القرد ونفخ فيه النفس البشرية ، وعليه فيكون آدم نتاج عمل محول وخالق معا . وأبين لك فى غير مفاوضة كيف يعمه هؤلاء فى الضلال .. ومن العجيب كيف لا يفقهون أن هذا المذهب إنما تنفيه الفلسفة نفسها كما سبق بيانه ..

القردى — أو هل تنفيه الفلسفة لو افترضنا تداخل الله عند انتقال كل من الأنواع كما تدخل عند خلق الانسان ؟ ..

الآدمى — إذا افترضت تداخل الله سبحانه كان لا بد من تعويض نفس بنفس .. أما هذا التعويض فيتم إما بوجود القرد الأول الذى تكون أو فى بداية الانتشار ، وكلا الافتراضين لا يتحقق . أما الأول فلأنه يفترض قتل الحى ثم إقامته أو ملاشاته ثم إقامة آخر بدله

القردى — قرأت فى كتب بعض أصحاب مذهب التحول أن التمايز إنما ينتج من عمل صدفة يدور عليها الانتخاب الطبيعى ، فما قولك فيه ؟ ..

الآدمى — قد سبقهم إلى مثل هذا القول غيرهم من الملحدين الذين يؤيدون المادة . . ونحن نوقفك على أدلة تذكر ما يعولون عليه من فعل الصدفة فى تمايز الكائنات .

إن الصدفة لا تقع إلا فى الأشياء التى يمكن لها أن تكون على خلاف ما هى .. فقد يمكن للطاولة التى يصنعها النجار أن تكون مربعة أو مدورة ، أما الأشياء التى هى من الضرورة ، ودائما ، فلا يمكن لها أن تحدث بطريق الاتفاق . ولكن من الأشياء ما لا يمكن له أن يكون على خلاف ما هو ، مثل الجواهر البسيطة وذوات الأشياء وحقائقها ومثل الأعمال التى تصدر عن فاعل لا يصادمه فى فعله شئ كالجاذبية مع قطع النظر عن كل مانع يصادمها فى فعلها ، وعليه فان هذه الأشياء لا تقع عليها الصدفة .. أتظن إن للصدفة أن تجعل الكلب حمارا والحمار كلبا ..

.. ونحن نشاهد أن الحركات والأفعال إنما تلى تمايز الأشياء ولا تسبقها .. أو لا ترى أن السفينة لا تتحرك ولا تجرى قبل أن يجعل كل من آلاتها فى موضعه على هيئة من التمايز لا ينبغى أن يشوبه أدنى خلل »

* * *

ويفضى هذا الحوار إلى عجز « الانسان القردى » عن الجواب فيتبعه صاحب الكتاب بمناقشة مطولة لمذاهب الماديين يستند فيها إلى حجج الفلسفة اللاهوتية ، ويقرر فيها أن العلوم الطبيعية وحدها لا تكفى لتحقيق النظر فى أصل الوجود من حيث هو موجود ، ولهذا سمى البحث عن أصل الوجود بما بعد الطبيعة لأنه « ينبغى أن يقرأ هذا العلم بعد الوقوف على علم الطبيعيات ، والمراد به علم يبحث عن الوجود من حيث هو موجود ، أى عن ذات الأشياء بقطع النظر عن معنياتها وأحوالها الخاصة التى ينحاز بها الشىء عما سواه ، أو علم يبحث به عن الأسباب الأخيرة للوجود والمعرفة ، فان كليهما لا ينفصلان ، لأن مبادئ المعرفة والعلم العالية المطلقة إنما هى التى تمكننا من الوقوف على أسباب الوجود .. ولذلك فانه يكون علم العلوم»

* * *

ولا نعلم أن كتابا فى هذا الموضوع بقلم باحث مسيحى من كتاب اللغة العربية ظهر قبل كتاب « صفوة علم اليقين فى حقيقة مذهب داروين » لمؤلفه الأسقف خير الله اسطفان ناظر مدرسة عين ورقة الذى ألفه بعد الكتاب السابق بأكثر من ثلاثين سنة (١٩٢٩) أعيد فى خلالها طبع مؤلفات الدكتور شبلى شميل فى هذا المذهب،

ونشط البحث بين الأوربيين فى نظريات النشــوء عامة على أثر البحوث المتضاربة فى نظريات تنازع البقاء وإرادة القوة وما إليها من « الفلسفات » التى أثارتها الحرب العالمية الأولى ومشاكل العلم والاجتماع فيما بين الحربين العالميتين . وقد أشار الأسقف إلى الأطوار التى مرت بمذهب دارون منذ إعلانه إلى تلك السنة ، فنقل كلاما عن العالم الألمانى إدواردفون هارتمان قال فيه إنه « فى سنة ١٨٦٠ كانت مقاومة الأفذاذ من العلماء الشيوخ لنظرية داروين شديدة ، وفى سنة السبعين أخذت هذه النظرية تنتشر فى كل صقع تقريبا ، وفى سنة الثمانين كان نفوذ المذهب الداروينى عاما ومطلقا حتى كاد يبلغ بسموِّه سمت الرأس ، وفى سنة التسعين بدأت بعض الشكوك تعتلى وبعض المقاومات تظهر ، وعلامة التصدع والانهدام تبينت واتضحت ، وفى العقد الأول من الجيل العشرين بدأت أيام المذهب أن تكون معدودة ، وكان بين مضاديه وداحضى حججه من أعلام العلماء ايمر ، وغوستاف وولف ، ردى فريز Vrise وفون والشتين Wallstein وفليشمان Flischmann ورينك Rienk وغيرهم كثيرون » .

وبعد هذا التمهيد عرض الأسقف للبحث من الناحية اللاهوتية فقال : « ان البحث العلمى عندما يأتى بنتائج واقعية أكيدة تجتمع ساعتئذ كلمة العالم المسيحى وغير المسيحى عليها على غير تضاد ولا تناف ، وهذا هو عين الصواب والرشد لأن الحق لا يغاير الحق ، ولا يتساهل لاهوتيو الكنيسة الكاثوليكية كما أنهم لا يسلمون لأخصامهم القائلين بالمذهب الداروينى المحض ، وهذا بعض الواجب عليهم بالنظر إلى ما يناقض حقائق الوحى المقدس ، غير أنهم متى رأوا من بعض الوجوه اتفاقا بين اللاهوت ونظرية النشوء كانوا من هذا القبيل لينى الجانب لطفاء هينين .. فمن هؤلاء العلماء الاهوناء المتئدين الأب واسمان الجرمنى الشهير بعلم طبائع الحشرات الميال إلى الاعتقاد بنظرية نشوء الأنواع المعتدلة ، القائل بأن أنواعا كثيرة من النبات والحيوان نشأت من أنواع طبيعية أصيلة أبدعها رب الطبيعة الخلاق ، كالأرانب الأليفة والبرية والحمار والفرس والكلب والثعلب الخ .. فإنك بهذا ترى أن مبدأ الخلق والإبداع لبث غير ممسوس البتة ، فاذا حل تصور اشتقاق الأنواع الجديد بالتحدر والتسلسل محل التصور القديم لثبات الأنواع على عدم التغير كانت حكمة

البارى فى الجديد أمجد منها بالقديم ، من وجه أنه عز نواله وجل جلاله وضع فى الطبيعة الآلية قوى تؤهلها لتحذير ونشر صور جديدة لموجودات حية بدون افتقار إلى توسط أو تدخل قدرة الله المبتدعة للكون ونواحيه والمعتنية بحفظها وإدارتها . وحينما تتصادم نظرية ما مع التعليم المسيحى تصادما واضحا غير قابل للشك .. يجب وقتئذ رفض هاتيك النظرية وطرحها مطلقا ، وبناء على هذا . كل من قال بمبدأ نشوئى ينفى به الخلقة قطعا بدون رجعة يجب أن يضرب بقوله ومبدئه عرض الحائط ، وكل نظرية تنكر خلقة العالم بستة أيام يراد بها ستة أدوار أو ست مدد يجب أن تطرح ، وكل قول بأدوار طويلة مرت وانقضت بين تكوين الأرض وخلق الإنسان هو قول معقول لهذا هو مقبول .. لأنه ليس فى الكتاب الكريم ما ينافيه أو ينقضه . أما بالنظر إلى أصل الانسان ، فالكاثوليك مقيدون بنص سفر التكوين ، ويمكنهم التوسع بتفسير كلمة الكتاب من جهة الجسد .. فقد ارتأى بعضهم أن المقصود بقوله جبله من تراب الأرض أنه قضى ورسم الصورة وهيأ الهيئة وليس كما يجبل الفاخورى الجرة والإبريق ، وأما من جهة النفس فالتعليم الكاثوليكى والفلسفة الصادقة الرصينة يلزماننا أن نقف عند الاعتقاد الراهن الثابت بأن أنفسنا روحية بحتة وبذا تفترق وتمتاز جوهريا عن نفس الحيوان » .

وتلى هذه المقدمة براهين الأسقف التى بنى عليها رفض تحول الإنسان عن غيره من الحيوان ، وهى تتلخص فى المطالبة بالحلقة المفقودة ، وهى « لم يرلها أثر أو عين بين الأحياء ولا بين الأموات ، لا فى الأحافير ولا فى المتحجرات .. »

ثم سأل الأسقف : « إذا ثبت مذهب النشوء هل يناقض الدين ؟ » فكان جوابه : إننا نجيب مع العلماء النزيهين المجردين من الأغراض والأهواء بالنفى ، وإنه لا يضاد مقاصد الخالق وغاياته » واستشهد ببحث للدكتور مكوشى يقول فيه : « إن النشوء بجميع مذاهبه لا ينفى مقاصد وغايات البارىء عز وجل ، فالأستاذ هكسلى النشوئى الكبير والمادى المعروف بين الناس النبهاء سلّم بكون النشوء لا يلزم منه نفى مقاصد الله ، وإن ترتب أو توقف مخلوق على آخر أو عملها معا لإتمام مقصد جيد أو اكمال غاية حسنة كالحياة للنبات وطيب العيش للانسان والحيوان هو

دليل واضح عند كبار العلماء على مقاصد الله .. فالذى يصنع آلة تعمل هى آلةً مثلها ، لهو أحذق وأقدر وأحكم من الذى يصنع آلة تقتصر على العمل المقصود منها ولا تتعداه ..

* * *

وفى سنة (١٩٣٧) ألف الدكتور حليم عطية سوريال الطبيب الأول لسجن أسيوط كتاب « تصدع مذهب دارون والإثبات العلمى لعقيدة الخلق » نبه فيه إلى خطأ يسبق إلى بعض الأذهان ، وهو اعتقادهم أن انكار مذهب النشوء مقصور على رجال الدين ، فإن من كبار العلماء الطبيعيين من يرفضه كالأستاذ فيالتون Vialleton عميد كلية الطب بجامعة مونبليه وأستاذ علم الأجنة فيها ، والأستاذ كاترفاج مدير متحف التاريخ الطبيعى بباريس وهو القائل « إننا لا نعلم كيف تكونت الأنواع الحية . . إننا نعلم فقط أنها غير قابلة للتحول وإننا على يقين بأن دارون ولامارك لم يكتشفا الناموس الحقيقى لطريقة تكوينها » .

ثم سرد الدكتور سوريال أسماء بعض الأساطين من علماء الطبيعة المعارضين لمذهب التحول ، وخلاصة رأيهم فى الاختلاف بين الأنواع « أن جميع تلك العوامل لا يمكنها أن تغير نوعا من الأنواع الحية إلى نوع آخر وكل التغيرات التى يمكنها أن تحدثها سطحية لا تمس التركيب الجوهرى للحيوان أو النبات وبعضها باثولوجية -مرضية — تقود إلى انقراض النوع ، ولقد قال العالم الإيطالى روزا أن الاختبار الاصطناعى الذى جربه بنو الإنسان فى خلال الستين سنة الماضية دليل عظيم ضد نظرية دارون .. » .

ويقرر الدكتور أن الحلقة المفقودة ناقصة بين طبقات الأحياء ، وليست بالناقصة بين الإنسان وما دونه فحسب « فلا توجد حلقات بين الحيوانات الأولية ذات الخلية الوحيدة والحيوانات ذوات الخلايا المتعددة ، ولا بين الحيوانات الرخوة ولا بين المفصلية ، ولا بين الحيوانات اللافقرية والفقرية ، ولا بين الأسماك والحيوانات البرمائية ، ولا بين الأخيرة والزحافات والطيور ، ولا بين الزحافات والحيوانات الثديية ، وقد ذكرتها على ترتيب ظهورها فى العصور الجيولوجية .. » .

ثم قال بعد الاستشهاد بكثير من أمثال هذه الملاحظات العلمية : « إن هناك مسألة منطقية بسيطة .. وهى معرفة كيف استطاع المخلوق الذى يعتبره التحوليون الحلقة المفقودة بين القرد والإنسان أن يعيش بين الحيوانات الضارية التى تحيط به ... فإن أصحاب نظرية النشوء يقولون ان هذا المخلوق كان أضعف عقلا من الانسان الحالى .. فكيف يمكن لمخلوق ضعيف الجسم وضعيف العقل أن يعيش وحوله الأسد والفيل والدب والنمر وغيرها من الحيوانات المفترسة ؟ .. » .

ويعتبر نقاد مذهب دارون أن مشكلة الحلقة المفقودة بين الأنواع – كما شرحها الدكتور سوريال – هى مشكلة المشاكل فى تمحيص هذا المذهب إلى اليوم ، وأنها لا تزال على قوتها واقناعها بعد انقضاء مائه سنة على ظهور كتاب أصل الأنواع واستئناف التعليق عليه بين خصوم المذهب وأنصاره الذين استجمعوا غاية ما استطاعوا لحل هذه المشكلة عند الاحتفال بذكرى مرور القرن على ظهور ذلك الكتاب .

* * *

ونحن نكتفى بالردود المتقدمة لأنها تمثل مناحى التفكير عند رجال الدين فى مناقشة مذهب النشوء ، وهى :

١ – منحى الجزم بالرفض ببطلان المذهب فى جملته وتفصيله لأنه مناقض للدين غير مستند إلى أدلة قاطعة .

٢ – منحى الرفض لنقص الأدلة مع تعليق النتيجة بانتظار الأدلة المقنعة والإيمان بأنه – إذا ثبت – لا يقضى بتكذيب العقيدة الدينية ، والعقلية ، فى الخالق ..

٣ – منحى القول بأن الأدلة العلمية التى يوردها العلماء لنفيه والتشكيك فيه أرجح من الأدلة العلمية التى يوردونها على تأييده ..

* * *

أما أنصار مذهب النشوء فى الشرق العربى فقد كان أشهرهم وأفصحهم بيانا الدكتور شبلى شميل ، وقد كاد أن يسبق دارون وأصحابه إلى الأخذ بالنظريات

النشوئية على علاتها ، وقد سبق الماديين الغربيين إلى نفي كل صفة روحية ، أو غيبية في الانسان ، إذ قال في مقدمة ترجمته لشرح بخنر على مذهب دارون « إن الإنسان على رأى هذا المذهب طبيعي هو وكل ما فيه مكتسب من الطبيعة . وهذه الحقيقة لم يبق سبيل للريب فيها اليوم ، ولو أصر على انكارها من لا يزال مفعول التعاليم القديمة راسخا في ذهنه رسوخ النقش في الحجر .. فالإنسان يتصل اتصالا شديدا بعالم الحس والشهادة ، وليس في تركيبه شيء من المواد والقوى يدل على اتصاله بعالم الروح والغيب ، فإن جميع العناصر المؤلف منها موجودة في الطبيعة وجميع القوى التي فيه تعمل على حكم قوى الطبيعة .. فهو كالحيوان فزيولوجيا ، وكالجماد كيماويا ، والفرق بينه وبينها فقط بالكمية لا الكيفية والصورة لا الماهية والعرض لا الجوهر .. فالإنسان يحس ، والحيوان يحس ، والإنسان يدرك ، والحيوان يدرك، ونواميس التغـــذية واحدة فيهما .. غير أن الإنسان يدرك أكثر من الحيوان لأنه أكمل تركيبا من الحيوان » ..

وكانت ردود الدكتور شبلي شميل على مناقشته تكرارا لردود دارون وبخنر وغيرهما من القائلين بتحول الأنواع ، وفحواها :

١ –إن التباينات بين الأنواع لا تزيد على التباينات بين أفراد النوع الواحد إلا بالوراثة ، وهذه أثر ثابت لا يحكم عليه بالفترة المعلومة من تاريخ الإنسان لأنها ثبتت بعد انقضاء مئات الملايين من السنين ..

٢ – وإن أنصاف الأنواع من شأنها أن تعيش وتنقل ميراثها إلى زمن طويل ، لأن التوريث مرتبط بتمام الجهاز المميز للنوع وهو لا يتم في أنصاف الأنواع ، ولكن قد يدل عليه التناسل بين بعض الحيوانات كالخيل والحمير أو الكلاب والذئاب ، وقد يدل عليه « اكتشاف الطير العجيب – الأركوبتركوس – الذى وصل بين طائفتين من الحيوان منفصل بعضها عن بعض انفصالا تاما وهما الطيور والحشرات » .

٣ – إن العلماء يخطئون في وضع حدود الأنواع ، وقد ذكر دارون « أن النباتي الإنجليزي وستن يذكر ١٨٢ نباتا إنجليزيا عدها غيره أنواعا مع أنها تباينات ، وقد

قال هوكر فى هذا المعنى ما نصه : إن النباتيين يعدون الآن من ٨٠٠٠ إلى ١٥٠٠٠ نوع من النبات ، فالنوع إذن غير محدود ..»

٤ – إن التحولات لا ينبغى أن يبحث عنها فى الأنواع الحاضرة ، لأن كلا منها تطور عن أنواع سابقة له فى سلسلة هى التى كان يمكن أن يجرى بينها التحول فى أوانه ، ولكن الأنواع الحاضرة تباعدت عن أصولها فابتعدت الأشباه المتحولة فيما بينها ..

ولا ننسى – عند تقدير عوامل العناد بين الطرفين – أن الدكتور شبلى شميل إنما يواجه بهذه الخصومة اللدود سلطان رجال الدين ، فانساق من هذه الخصومة إلى خصومة الأديان ، ورأى كما قال فى مقدمة الترجمة أن « الملل والديانات أصلها واحد ، وقيامها فى الدنيا إنما هو لعاملين : حب الرئاسة فى الرؤساء ، وارتياح المرءوس الى حب البقاء ، وكلاهما لما فى الإنسان من محبة الذات .. فسطا دهاة الناس على ساذجى العقول منهم ، فساد البعض وسيد على البعض الآخر ، وتم بذلك غرض الفريقين » .

وخاطب رؤساء الدين قبل ختام المقدمة قائلا : « سوف يتولى ما بقى ، ولربما كان حظكم من ذلك فى الشرق أطول جدا لولا أن الغرب باسط فوقه يديه .. ولا تعللوا النفس بما فى التاريخ من سقوط بعض الأمم .. ألقت إليكم مقاليد أحكامها وسلمتكم زمام أمورها ، فإنه – وإن حصل ذلك – إلا أنكم لن تبلغوا أمانيكم لتوفر معدات التقدم فى العلوم والصنائع وانتشار ذلك بواسطة الطباعة » .

* * *

وبعد ، فهذه شذرات من التعليقات الدينية والعلمية التى قوبل بها مذهب التطور فى الغرب وفى بلاد الشرق العربى ، نحسب أننا أتينا فيها على كل رأى من آراء الباحثين الدينيين والعلميين فى هذا المذهب ، وأن الكتب التى اخترناها للاقتباس منها تمثل جوانب التفكير جميعا فى هذا الموضوع ..

وقد مضى أكثر من سبعين سنة على ظهور أقدم الكتب التى ذكرناها فى هذه العجالة ، ومضى نحو ثلاثين سنة على أحدثها .. فإذا أردنا أن نعود إليها لنحكم

عليها حكم الزمن الممحص للآراء ، فالذى نراه اليوم أن الدينيين قد وقفوا الموقف المنتظر منهم فى معارضة النشوئيين الماديين ، فليس من المنتظر أن يقابل انكار الدين بغير الانكار من أهل الدين . وقد أصاب العلامة الشيخ محمد رضا حين قال انه يدفع الشبهات عن العقيدة الإلهية فى كل ملة ، ولا يقصر دفاعه على عقيدة الإسلام

* * *

ولكن الكتاب الذين تناولوا هذا الموضوع من الوجهة الدينية قد أخطأوا — دينيا وعلميا — فى انكارهم باسم الدين أمورا لا تزال قيد البحث بين الإثبات والنفى ، ويجوز أن تسفر بحوث الغد عن إثباتها بما يقطع الشك فيها .. كما يجوز أن ينفيها بما يزيل مواضع الخلاف فيما بين عقائد الدين وحقائق العلوم . وقد كان لبعضهم عذره لقلة المعلومات الصحيحة التى وصلت إليهم عن مذهب دارون ومذهب التطور على العموم ، وكان لبعضهم عذر مثل هذا العذر قد يسوغ اندفاعهم إلى درء الخطر عن العقائد الإلهية يوم تعجل ثرثرة التقليد ، فهجموا على المذهب على غير علم به كعادتهم فى الهجوم على كل جديد مستغرب ، وانتحلوه للثرثرة بأحاديث الإلحاد والمروق .. فكان تعجلهم هذا داعيا إلى مقابلتهم بتعجل مثله من الدينيين .

بيد أنه — ولا ريب — تعجل وخيم العاقبة ، قد ظهرت عواقبه الوخيمة مرة بعد مرة منذ ابتدأ العلم الحديث فى نشر كشوفه المتوالية ، ووجب الاتعاظ بعواقب التصدى للمباحث العلمية وهى فى معرض التحقيق بين الاثبات والنفى أو التغليب والاستضعاف ، وقد علم رجال الدين فى الغرب ماذا كان من أثر تحريمهم للقول بدوران الأرض حول الشمس ، وإيجابهم تعليم النشء أن الشمس تدور حول الأرض .. كأن وجود الخالق جل وعلا مرتبط بدوران هذه أو تلك ، وكل فى فلك يسبحون ..

لقد كان فى ذلك التعجل من رجال الدين عظة لهم تنهاهم أن يعيدوا مثل هذه الغلطة فى التصدى للمذاهب العلمية التى لم ينقطع الشك فى ثبوتها أو بطلانها ، وقد ينقطع الشك غدا بما يثبت على منكريها أنهم كانوا مخطئين فى فهم الدين والعلم

على السواء .. فان زلزال المادية الذى اضطرب له الغرب اضطرابه العنيف لم يكن له حجة على العقائد الالهية أقوى من هذه الحجة على الدين ، كما تصوره المتعجلون من « المؤمنين » على غير يقين ..

* * *

ويشبه هذا الخطأ المنكر خطأ آخر لم ينفرد به الدينيون ، بل شاركهم فيه زمرة من العلماء لم يحسنوا التمييز بين قضايا العلم وقضايا الحقوق « المدنية » أو الجنائية فى المحاكم ودواوين التشريع .. فصاحب الدعوى فى المحكمة أو الديوان مطالب باثبات دعواه لأنها مصلحته الخاصة ، وفيها – إذا لم تثبت – اضرار بمصالح الآخرين . ولكن الدعوى العلميه ليست كذلك ، ولا يصح أن يناط أمر اثباتها بمن يدعيها وحده ، وهى مصلحة الناس أجمعين ، ومن ينكرها بغير حق يضر بالناس أجمعين ..

وقد أفرط النقاد جدا فى التشبث بمسألة الأنواع الوسطى ، ولم يصطنعوا الأناة ليدركوا ما فى هذه الحجة من الضعف والعنت ويعلموا ان التشبث بهاإلى هذا الحد إحراج للخصم من قبيل إحراج الخصوم المتنازعين على دعاوى المحاكم والدواوين .

فكيف يخطر على بال الناقد المخلص أن الأنواع الوسطى تبقى لها ذرية ، مع العلم بأن الوراثة لا تتم قبل استكمال خصائص النوع ؟ وكيف يفوتهم أن يلمحوا هذه الحقيقة ويرتبوا عليها ما ينبغى أن يترتب عليها من التريث والانتظار ، وهم يرون اليوم أمثلة بارزة من توقف النسل بين الخيل والحمير أو بين الذئاب والكلاب ؟ .. وإذا كان القائل بالنشوء يعجز عن إقامة الدليل على تناسل النوع المتوسط ، فكيف يحال هذا العجز إليه ولا يحال إلى الواقع الذى لا حيلة له فيه ؟.. إن كثيرا من الأحياء الباقية إلى اليوم لم يبق منها أثر يدل على وجودها فى عصور الحفائر المطمورة بين طبقات الأرض ، فاذا جاز هذا فى أمر الأنواع التى بقيت ولا شك فى بقائها إلى اليوم فكيف نستكثره عل انصاف الأنواع التى لم تستكمل خصائص النسل والتوريث؟

فليس من الرأى السليم – دينا ولا علما – أن يرتبط رفض النشوء بعجز النشوئيين عن ابقاء أنواع وسطى من الحيوان غير قابلة بطبيعتها للبقاء والتوريث .

وقد يحدث غدا أن يوجد الدليل الممكن على النوع المتوسط ، أو توجد الوسيلة الممكنة للتلقيح بين الأنواع المتقاربة ، فتعود إلينا قصة دوران الأرض ، ودوران الشمس يخطر على الدين والعلم لا داعية له غير التعجل والعنت فى الخصومة الفكرية، وإنه لعنت معيب يجوز فى خصومات المال ولكنه يحسرم أشد الحرمان فى خصومات الأفكار والآراء ..

* * *

وفى كتاب تدور موضوعاته على حكم القرآن الكريم فى شأن الإنسان يعنينا هنا أن نسأل : هل يصيب الذين يحرمون باسم الإسلام مذهب النشوئيين المؤمنين بالخالق ؟ ..

وليس يخالجنا كثير من الشك ولا قليل فى خلو كتاب الإسلام مما يوجب القول بتحريم هذا المذهب .. فقد يثبت غدا أن المذهب صحيح كله أو باطل كله ، أو يثبت أن بعضه صحيح وبعضه باطل ، ولكن كتاب الإسلام لا يصد عن سبيل العلم فى أية وجهة من هذه الوجهات ، كما سسنبينه فى موضعه من الفصل الأخير

الدِّين ومذهب دارون

نعود فنقرر فى هذا الفصل ما ختمنا به الفصل السابق ، فنقول ان مذهب التطور أيا كان تفسير القائلين به لنشأة الأنواع ، ليس فيه ما يصح أن يستند إليه الملحدون لإبطال الدين أو انكار الخالق أو القول بخلو الكون من دلائل القصد والتدبير .

وقد نسب القول بنشأة الأنواع من أثر الانتخاب الطبيعى والانتخاب الجنسى إلى عالمين كبيرين من علماء القرن التاسع عشر : هما شارلز دارون والفريد رسل ولاس ، ولم يكن أحد منهما منكرا لوجود الله .

فأولهما — شارلز دارون — كان يقول إنه يستريح إلى الإيمان بوجود الإله فى هذا الكون الكبير ، ولكنه يرى أن شعوره هذا لا يلزم أحدا أن يشعر به مثله ولا يبلغ من شأنه أن يكون حجة علمية تقنع المنكرين .

كتب فى سنة (١٨٩٧) إلى الأستاذ فرديس صاحب كتاب « صور من الشكوك » يقول جوابا على سؤاله : « إننى فى أشد أحوال التردد لم أكن قط ملحدا إذا كان معنى الملحد إنكار وجود الله . وأرى على العموم — وبخاصة مع تقدم السن — أننى أحرى أن أسمى (لا أدريا) وأن هذا الاسم أقرب إلى الصواب فى وصف تفكيرى ..»

وقال فى خطاب كتبه إلى طالب هولندى (فى الثالث من أبريل سنة ١٨٧٣) :

« ... يبدو لى أن استحالة القول بأن هذا الكون العجاب العظيم ، وما انطوى عليه من شعورنا الواعى ، إنما كان وليد المصادفة — هو أكبر سند للقول بوجود الله ، ولكنه سند لا أستطيع أن أقرر قوة اقناعه كما لا أستطيع أن أغضى عن المشكلة التى تنجم مما يتخلل هذا العالم من الآلام » ..

وكتب إليه طالب ألمانى فى سنة ١٨٧٩ يسأل عن عقيدته الدينية ، وعن العقيدة

التى يدعو إليها الأخذ بمذهب التطور ، فكلف أحد ذويه أن يجيبه ويجيب غيره ممن يوجهون إليه هذه الأسئلة قائلا :

« إن مستر دارون يعتذر لكثره الرسائل التى ترد إليه ولا يتيسر له الرد عليها جميعها ، ويود أن يقول إن مذهب التطور يوافق كل الموافقة إيمان المؤمن بالله .. غير أننا يجب أن نذكر أن الناس يختلفون كثيرا فى تعريفهم لما يعنونه بالإله » .

ويفهم من خلاصة رأيه فى سيرته التى كتبها بقلمه ، أنه لا يفرق بين كتب العهد القديم وكتب الديانة الهندية من حيث نسبتها إلى الوحى الإلهى ، وأنه لم يقم لديه الدليل على حدوث هذا الوحى فى التاريخ ، ولكنه إذا أراد أن ينظر إلى المسألة الإلهية من جانب الانتخاب الطبيعى فان أنواع الأحياء كانت خليقة أن تضرب عن تجديد وجودها واستمرار نسلها لو كانت شرور الحياة أكبر من حسناتها ، وهى الحجة التى يستند إليها الملحدون فى انكارهم للمقاصد الإلهية .

وكان دارون على تردده فى مسائل الغيب ، يشعر بقداسة الدين ويحرص على رعاية شعور المتدينين ولا يرتضى من العلماء أن يقحموا مذاهبهم على ضمائر الناس فيما اطمأنوا إليه من عقائدهم الروحية ، فلما أراد كارل ماركس أن يهدى إليه كتابه عن رأس المال كتب إليه متعذرا ، وقال من رسالة محفوظة الآن بمعهد ماركس وانجلز فى موسكو : « إننى أشكر لك رسالتك الودية ... وأفضل أن يكون هذا الجزء من الكتاب غير مهدى إلى مع شكرى لهذه التحية ، إذ كان اهداؤه إلى يتضمن على وجه من الوجوه اقرارى لما فى سائر الكتاب الذى لا علم لى به . وإننى — مع غيرتى على الدعوة إلى حرية الفكر فى جميع المسائل – أرى ، صوابا أو خطأ ، أن المناقشات المباشرة التى تناقض المسيحية والإيمان بوجود الله قلما يكون لها أثر على جمهرة الناس ، وإن خير وسيلة لتحقيق الحرية الفكرية أن تتقدم العقول تبعا لتقدم العلوم ، ولهذا أرانى أتجنب الكتابة فى أمور الدين وأقصر كتابتى على المباحث العلمية » .

وعاش دارون بقية حياته على هذا الرأى ، مؤمنا بأن مذهبه لا يقتضى من العقل أن ينفى وجود الله ، ولا أن يمس عقائد المؤمنين بوجوده ، وأن الإيمان بأية ديانة

من الديانات لا يتوقف على الفصل فى قضية التطور إلى الرفض أو إلى القبول .

أما « الفريد رسل ولاس » شريك دارون فى القول بتعدد الأنواع من أثر الانتخاب الطبيعى وعوامل البنية الطبيعية ، فقد كان مؤمنا قوى الإيمان بوجود الإله .. وكانت مراقبته لعوامل الطبيعة سببا لتصديقه بالمعجزات وخوارق العادات ، لأنه كان يستخلص من فعل هذه العوامل فى الطبيعة أنها لا تجرى على هذا المجرى لزاما بحكم العقل أو بحكم التفكير المنطقى ، وإنها كان يجوز أن تجرى على مجراها هذا أو على مجرى آخر يساويه ويماثله فى حكم العقل والأقيسة المنطقية ، وإنما هى الإراده الإلهية التى أوجبت هذا النظام نتيجة لتلك العوامل ، فليست المعجزة التى يريدها الله أغرب من نظام العوامل المطردة فى ظواهر الكون ، ومرجعها جميعا إلى الإرادة الإلهية على اطراد أو على استثناء .

* * *

ومن عقيدة صاحبى المذهب فى مسائل الغيب ، نفهم أن العلماء والمفكرين فى الغرب ينقسمون هذا الانقسام وأن القول بأن عالما من العلماء أو فيلسوفا من الفلاسفة يقبل مذهب التطور على تعدد معانيه لا يدلنا على رأى محدود يراه فى الدين المسيحى أو فى الدين عامة ، لأنه يجوز أن يكون من المؤمنين كما يجوز أن يكون من المنكرين أو المترددين ، حسب المنهج الذى ينهجه فى تفكيره وأساليب استدلاله .

ومن المفكرين والعلماء من كان يجعل التطور أساسا لعقيدته الروحية أو الفكرية، وأشـــهر هؤلاء بين فلاسفة القرن العشرين « برجسون » الفرنسى و « هويتهد » الانجليزى ، وهو عدا اشتغاله العميق بالبحوث الرياضية والفلسفية رجل من رجال الدين وعالم من علماء اللاهوت ..

ويكثر بين العلماء الطبيعيين من يعتبرون التطور دليلا على النظام ، ويعتبرون النظام دليلا على وجود الخالق ، ومنهم أعضاء فى مجمع العلوم الملكى كالأستاذ « جلادستون » الذى يقول : «كثير منا نحن المسيحيين من رجال العلم من يدركون أن هناك وحدة فى النظام ووحدة فى الغاية ، تبدوان من خلال النظر إلى خلائق الله .. ونحن ندين بأن مذهب دارون عن بقاء الأنسب لا يبطل فكرة التدبير الإلهى أو

فكرة النظام المقصود .. بل يؤكد هذه الفكرة ويمهد لنا سبيل النظر إلى الوسائل التى اختارتها العناية الإلهية لتدبير مقاصدها منذ القدم ، فنرى أنها نتيجة قانون منتظم وليست مجرد سلسلة من المفاجآت المتفرقة » .

* * *

أما المنكرون من علماء الطبيعة ، فحجتهم فى الانكار أن العقيدة الدينية تقوم على الخوارق والمعجزات ، وأنه لا سبيل إلى التوفيق بين عقيدة تقوم على خرق قوانين الطبيعة وبين علم يقوم على تفسير الكائنات بما تقتضيه هذه القوانين .

وأشهر القائلين بهذا الرأى بين علماء الطبيعة « ارنست هيكل » الألمانى و« توماس هكسلى » الإنجليزى ، وهو أقرب إلى الاعتدال فى الانكار من زميله ..

فهيكل يقول : « إن العقيدة الدينية تعنى دائما تصديق معجزة خارقة ، وهى بهذه المثابة قائمة على مناقضة ينقطع الرجاء فى التوفيق بينها وبين عقيدة العقل الطبيعية، وهى – على خلاف سنن العقـــل – تذهب إلى فرض العوامل فوق الطبيعية ، ويحق من أجل ذلك لمن يشاء أن يسميها خرافية – أو غير طبيعية – وإن ذلك الوحى المدعى الذى تأسست عليه عقائد المسيحية ليس مما يتفق مع أثبت النتائج التى وصل إليها العلم الحديث » ..

وهكسلى يقول : «إننا – أمام الأمور التى لا شك فى بعدها عن الاحتمال – لا نقول إننا محقون فى طلب البرهان المقنع لتصديق وقوع المعجزة الخارقة بل نقول إن الواجب الأدبى يتقاضانا أن نجد هذا البرهان قبل أن نأخذ تلك المعجزة الخارقة مأخذ الجد والاعتبار ، ولكننا إذا كنا – بدلا من الوصول إلى ذلك البرهان المقنع – لا نرى أمامنا إلا حكايات نجهل كيف نشأت ومتى نشأت بين أناس يستطيعون أن يصدقوا كل التصديق أن الشياطين تتلبس بأجسام الخنازير ، فإننى أصرح بأن شعورى إنما هو شعور الدهشة من أن أرى الإنسان العاقل ينظر إلى شهادة هؤلاء نظرة جدية ... » .

* * *

وعلى مثل هذا المحور يدور الخلاف بين الفريقين اللذين يتفقان فى قبول مذهب التطور ، ولكنهما لا يتفقان فى الحكم على دلالته من الوجهة الدينية ، ولكن هذا الاختلاف لا يرجع إلى المذهب فى ذاته .. وإنما يرجع إلى طريقة النظر إليه وطريقة التفكير التى تعودها ذهن العالم أو الفيلسوف، فربما خرج الذهنان بنتيجتين متناقضتين من فكرة واحدة يراها أحدهما برهانا على وجود الله ويراها الآخر مغنية عن البحث فى إثبات وجود الله ، وقد سأل نابليون بونابرت أكبر علماء الفلك فى زمانه — لابلاس — عن مكان العناية الإلهية فى حركات الأفلاك ، فكان جوابه أنه لا يرى لها مكانا فيما يعلمه من تلك الحركات ، كأنه يقول إن قوانين الحركة وحدها تفسر دورة الفلك تفسيرا يغنى عن النظر إلى علة أخرى وراءها ، وهو أسلوب من التفكير يناقض أساليب الذهن الذى يراقب دورة الفلك ويعلم أن العقل لا يستلزم حصولها على هذا الوجه دون غيره ، وأنه لا بد — إذن — من البحث عن الإرادة التى اختارت لها هذا الوجه من الحركة فانتظمت عليه ..

ولعل الفارق بين هذين النمطين من التفكير يتعلق بالنظرة إلى النظام والمعجزة ، فمن كان من القائلين بالتطور مؤمنا بالعناية الإلهية فطريقته فى التفكير أن يستدلَ بانتظام الخلق على وجود الخالق ، وأن يرى بعد ذلك أن المعجزة لا تستغرب مع الإيمان بالقدرة الإلهية والحكمة التى تستدعيها ، اذ ا كان هناك ما يستدعى صنع المعجزات فى رأيه .

ومن كان من القائلين بالتطور معطلا للعقيده الدينية ، فطريقته فى التفكير أن التوفيق متعذر بين تفسير الكائنات بالقوانين الطبيعية وبين خرق هذه القوانين لإثبات عقائد الدين .

لكن الرأى الأخير الغالب على علماء اللاهوت المسيحيين أن معارضة الرؤساء من رجال الدين لمذهب التطور عند إعلانه قبل مائة سنة لم يكن من سداد الرأى فى شىء ، وأن هذه المعارضة ينبغى أن تحسب على أصحابها ولا تحسب على الديانة المسيحية التى لا تأبى التفسير على وجه موافق لمذهب التطور على أقواله المتعددة ،

ويعبر عن هذا الرأى فى كتاب مؤلف لهذا الغرض عالم من أكبر علماء الرياضة وعلماء اللاهوت المعاصرين وهو الأستاذ كولسون عضو مجمع العلوم الملكى وصاحب كتاب « العلم والعقيدة المسيحية » ومدار الرأى فيه كله على هذه الفكرة سواء فيما يرجع إلى مذهب التطور أو إلى غيره من مذاهب العلم الحديث .

سلسلة الخلق العظمى

سلسلة الخلق العظمى مذهب يوازى مذهب التطور ، ويتمشى معه فى معظم الطريق .. ولكنه لا يبتدئ معه من البداية ولا ينتهى إلى الغاية ..

وصفوة القول بسلسلة الخلق العظمى ، أن الوجود درجات متفاوتة فى ترتيب الضعة والشرف ، تبتدئ من المادة الأولى التى لا صورة لها وترتفع إلى مرتبة الوجود الإلهى الذى تمحض له العلم والخير ، فهو علم لا يعرض له الجهل ولا يحتجب عنه سر ، وخير لا يشوبه الشر ولا يقع له فى إرادة

وهذه السلسلة العظمى كاملة فى انتظامها لكل حلقة من حلقات الوجود ، وكل قابلية من قابليات الصفات والاعراض ، فلا تفرغ السلسلة العظمى من إحدى هذه الحلقات ، ولا يعقل أن توجد فى الامكان قابلية لشئ قط ولا توجد فى الواقع مع حلقة من حلقات الوجود السفلى أو العلوى ..

* * *

والرائد الأكبر لهذا المذهب بين الأقدمين أفلاطون الملقب بالحكيم الإلهى ، فهو الذى وضح هذا المذهب توضيحا فلسفيا وبناه على حجة عقلية ، وهى أن الإله – وهو خير محض – يأبى له كرمه أن يضن على شئ ، كائنا ما كان ، بنعمة الوجود .. فمها يبلغ من حقارة شأنه فهو مستحق لحصته من الوجود فى مرتبته من الخلق ، ومستحق لأن يصعد من هذه المرتبة إلى ما فوقها بنعمة من الله وبما ركب فى طبائع الأشياء من شوق إلى الكمال .

والراجح أن هذا المذهب وصل من الهند إلى حكماء اليونان من طريق العبادات السرية التى عرفت باسم النحل « الأورفية » وأسبق ناقليه من كبار الفلاسفة اثنان هما : فيثاغوراس وامبدوقليس ، وكلا هما يقول بتناسخ الأرواح ، ويتنطس فى معيشته على نظام الرياضة الصوفية والرياضة البدنية ، وبين أتباعهما من كان يجمع بين التقشف ومراس الرياضة البدنية ويفوز فى مبارياتها العامة ..

وقد كان فيثاغوراس يجتنب أكل اللحوم ، ويقسم الأغذية إلى صالحة للروح وغير صالحة لها لأنها بهيمية ، وكأنه كان يحرم أكل اللحوم لأنها مأكل السباع ويحرم أكل الفول وما إليه لأنه مأكل البهائم ، ويحسب أن الأرواح تنتقل بين الأجساد لترتفع أو تهبط فى درجات الخلق ومراتب البهيمية والروحانية ، وله من الأقوال المقتضبة ما يشبه مذهب الهند فى الدورات الأبدية التى يحسبونها بعدد مقدور من ألوف السنين ، مع قسمة السنين إلى شمسية وكونية .

* * *

وجاء بعده امبدوقليس ، فقسم درجات المادة واعتبر العناصر الأربعة أشرفها وأعلاها ، وسماها بالجذور قبل أن تعرف باسم العناصر وتسمى بعنصر النار وعنصر الهواء وعنصر الماء وعنصر التراب .

والعالم عند أصحاب القول بالسلسلة العظمى ، عالمان : كبير وصغير ، فالعالم الكبير Macrocosm هو الكون كله بما اشتمل عليه من كائنات علوية وسفلية ومن مراتب روحية وبهيمية ومادية ، والعالم الصغير Microcosm هو الإنسان ، لأنه يحتوى فى تكوينه كل عنصر وكل مادة وكل درجة ، ويتقبل الارتفاع إلى صفات العلم والخير ، أو صفات العقل والتدبير التى تمت للإله على أكملها وأرفعها ، كما يتقبل الهبوط إلى مرتبة البهيمية وما دونها ، وفى الإنسان شئ من خصائص الأجسام المادية ، وشئ من خصائص الأجسام النباتية ، وشئ من خصائص الأجسام الحيوانية ، وشئ من خصائص الروح الذى يكون للملائكة بغير جسد ، وشئ من المعرفة التى يقترب بها من الصفات الإلهية .

وقد انتقل مذهب السلسلة العظمى من الهند واليونان إلى العرب ، وانتقل من العرب إلى متصوفة الأوربيين ، وكان من تلاميذ الحكمة العربية رجل تسنم عرش البابوية فى آخر سنة قبل نهاية القرن العاشر (٩٩٩م) وهو سلفستر الثانى ، وظهرت آثارها فى أقوال القديس توما الاكوينى والبرت الكبير « ويرى الأستاذ آسين بلاسيوس الاسبانى أن نزعات دانتى الصوفية وأوصافه لعالم الغيب مستمدة من محيى الدين بن عربى بغير تصرف كثير ، ومن المعلوم أن أول الفلاسفة الصوفيين من

الغربيين – جوهان اكهارت الألمانى – نشأ فى القرن التالى لعصر ابن عربى ودرس فى جامعة باريس ، وهى الجامعة التى كانت تعتمد على الثقافة الأندلسية فى الحكمة والعلوم[1] » .

ولعل اكهارت هو أسبق المقتبسين من المتصوفة الغربيين لقول ابن عربى ، إن الله هو الوجود الحق وإن كل ما عداه من موجود فوجوده عارية ، وهو قول فى جملته يعيد إلى الذهن قول أفلاطون إن الله هو مقياس كل حقيقة ردا على بروتاجوراس Protagoras الذى كان يقول : إن الإنسان هو مقياس الوجود ، وإن الله أنعم على الإنسان بالحياة « الزمنية » لأن الزمن محاكاة للوجود الأبدى الذى اختصَّ به الإله دون سواه ، وليس بين القولين تناقض فى النهاية ، لأن افلاطون يعود فيجعل العقل – صفة الله العليا – درجة يبلغها الإنسان ولا يدركها من دونه من المخلوقات ، ولكنه قد يعلو بالعقل فوق مرتبة المادة التى تمتزج بالعقل فى تكوين الإنسان ..

* * *

وقد كان لفلسفة أرسطو نصيب غير قليل من الأثر فى توجيه عقول الأوربيين منذ القرون الوسطى إلى مذاهبهم أو أقوالهم ، فى سلسلة الوجود العظمى ، لأنه رتب الموجودات على حسب نصيبها من الحس ، وقارب بين النبات والحيوان ، فجعلها مشتركين فى « النفس » النامية ، وكاد أن يجعلها رتبة من رتب العقل يتوسط فيها النبات بين الجماد والحيوان ، ولم يكن فى تصنيفه للكائنات فاصل حاسم بين الحيوان وما دونه لأن « التولد الذاتى » كان فى تقديره من الممكنات ، وانقضت بعده القرون الوسطى وأوائل العصر الحديث قبل أن تظهر للعلماء استحالة تولد الحيوان من غير الحيوان .

وتقبل اللاهوتيون الأوربيون فكرة السلسلة العظمى ، كما وصلت إليهم من

(١) أثر العرب فى الحضارة الأوربية للمؤلف.

مفكرى العرب ومتصوفتهم ، فلم يجدوا فيها تناقضا ينكرونه بين القول بخلاص الإنسان بالإيمان وقول سقراط وأفلاطون أن العقل هو الصفة الإلهية التى يتحلى بها الإنسان ويعلو بها من أفق الخلائق الدنيا إلى أفق النعمة الإلهية وإن الإنسان بمعرفته للأشياء يحتويها ويملكها ويؤتمن على تدبيرها محاكاة لقدرة الله على تدبير الخير لمخلوقاته ، فإن التناقض بين خلاص الإنسان بالإيمان وخلاصه من أوهاق المادة بالعقل والمعرفة ، يبطل ويزول متى اعتقد المفكر أن العقل الرشيد سبيل إلى الإيمان بالله والتعويل على البركة الإلهية فى تطلعه إلى النجاة والخلاص .

ولم يصطدم الرأيان من بعض الجوانب إلا بعد ظهور فلسفة ابيلار (١٠٧٩ -١١٤٢م) الذى فسر السلسلة العظمى بأنها لازمة ضرورية تستوعب كل الممكنات ، فيستحيل أن يوجد شئ غير ما هو موجود ، لأن الخالق فى علمه وقدرته يعلم جميع الممكنات ولا يعجز عن تحقيق ممكن منها يتعلق بعلمه وإرادته ، فأنكر عليه معاصره برنارد دى كليرفو (١٠٩١ – ١١٥٣) داعية الحرب الصليبية الثانية ذلك التفسير ، وقال إنه يناقض ما ينبغى أن نؤمن به من غضب الله على الخطيئة والرذيلة ومن إنعامه بالخلاص على الخطاة ، وكان القديس توما الاكوينى (١٢٢٦ – ١٢٧٤) يميل إلى تأييد برنارد فى اعتراضه على تفسير إبيلارد ، ويكاد يعيد ردود الغزالى على ابن رشد فى مثل هذه المناقشة ، فيقول : إن خلق الله لهذه الموجودات على سنتها التى أودعها فيها لا ينفى قدرته على خلق غيرها زائدا عليها ، ولاينفى قدرته على خلقها مرة أخرى فى صورة غير هذه الصورة ، فليس انتظام سلسلة الخلق مانعا أن تنتظم لها حلقات غير هذه الحلقات وسلسلة غير هذه السلسلة مع استيعاب الله لجميع الممكنات ، لأن التبديل فى الممكنات غير مستحيل . وجاء بيكوديلا ميرندولا (١٤٦٣ – ١٤٩٤) Pico della Mirandola فقال بما كان يقوله المتصوفة المسلمون من قبول الإنسان لأرفع المراتب وأدناها ، وإن كل مخلوق قد يلتزم مكانا من سلسلة الخلق لا يعدوه إلى ما فوقه ، إلا الإنسان .. فانه لا يتقيد بمكان من السلسلة العظمى غير المكان الذى يرتضيه لنفسه ، علوا إلى مرتبة الملائكة المقربين ، أو سفلا إلى مرتبة البهائم والحشرات .

وعاد البحث فى مكان الإنسان بعد كشف كوبرنيكوس لدوران الأرض حول الشمس ، وتجدد المناقشة عن مركز الخليقة وعن مكان الإنسان على هذا المركز المختار .. فقد يجوز أن يكون للعالم الأرضى نظراء له من العوالم السماوية وأن يكون لتلك العوالم سكانها من الخلائق العقلاء ، ولكن هذه المناقشة لم تزعزع أساس الفكرة التى تسلسل الموجودات من أدناها إلى أعلاها فى العالم المعروف ، وفى كل عالم يمكن أن يعرف قياسًا عليه ، وظلت فكرة السلسلة العظمى غالبة على الباحثين فى مركز الإنسان من الخليقة ، وقال بها فلاسفة الشعراء كما قال بها فلاسفة الحكمة والدين إلى زمن قريب ، وعلى أساس هذه الفكرة نظم الشاعر الإنجليزى اسكندربوب (١٦٨٨ — ١٧٤٤) قصيدته الكبيرة التى سماها مقالة عن الإنسان ، وقال فيها يخاطب الإنسان :

« اعرف إذن نفسك ، ولا تدع الإحاطة بعلم الله

« إن دراسة الإنسان المثلى هى الإنسان

« قائما على برزخه هذا من الحالة الوسطى

« مخلوقا عاقلا فى ظلمة ، عظيما فى خشونة

« أعلم من أن يكون « شكوكيا » لا يدرى

« وأضعف من أن يكون « رواقيا » يصبر

« معلقا بين العمل والراحة

« معلقا بين الإلهية والبهيمية

« معلقا يتردد بين إيثار عقله أو بدنه

« يولد ولكن ليموت ، ويعلم ولكن ليخطىء

« يحيط به الجهل نقص علمه أو زاد

« ويختلط أمره فى فوضى من الفكر والشهوة

« وهوهو الذى يسئ إلى نفسه أو يتجنب الإساءة

« مخلوقا نصفه ليرتفع ونصفه لينحدر

« سيدا لجميع الأشياء وفريسة لها جميعا

« وهو الحكم الوحيد فيما هو حق وباطل ، ولكنه يضطرب فى خطأ دائم

« ولايزال فخر الخليقة ، وسخريتها ، ولغزها الغامض ، فى آن »

وهذا هو مكان الإنسان الأوسط ، بين حلقات هذه السلسلة العظمى « التى إذا انكسرت إحداها وقع الخلل فى سائرها »

وجاء بعده شاعر آخر هو جيمس تومسون صاحب قصيدة الفصول (١٧٠٠ — ١٧٤٨) فنظم الوجود من طرفى هذه السلسلة العظمى « بين الكمال الذى لا حد له ، وبين حافة الهاوية السفلى والعدم المرهوب »

* * *

وتوقف البحث فى سلسلة الخلق العظمى بعض التوقف بين أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر ، ولكنه لم ينقطع .. ولا نعتقد أن الانقطاع عن البحث يعرض لمسألة الإنسان ومركزه من الكون فى زمن من الأزمان ، وإنما انقطع البحث فترة يسيرة ، ليتجدد بكل ما يستطاع من قوة مع البحث فى مذهب التطور وفى علوم الأحياء عامة وعلم الإنسان خاصة على هذا النطاق الواسع الذى يشمل اليوم علم الحياه أو « البيولوجى » وعلم الحيوان « الزولوجى » وعلم الأجناس البشرية « الاثنولوجى » وعلم الإنسان « الانثروبولوجى » عدا مباحث شتى تتصل بالمعلومات العامة عن الإنسان ومركزه بين الكائنات فى آراء علماء الطبيعة وآراء الفلاسفة والمفكرين .

* *

ونعود إلى السلسلة العظمى عند العرب الذين نقلوا أهم مصادرها إلى الأوربيين، فنقـــول انهم عرفوها — كما تقدم — من مصادر شتى ولم يجعلوها دستورا عاما يحيط بالموجودات ويقرر للإنسان مكانه على مذاهب القائلين بتلك السلسلة ، لأن مكان الإنسان كما ورد فى آيات القرآن الكريم أغناهم عن القول بمكان له ينسبه

إلى سلسلة الخلق ، ويلحقه بها لزاما على طريقة الأقدمين فى إلحاقه بغير الخلائق الآدمية ..

وإنما عرفت لحكماء العرب أقوال تشير إلى ترتيب السلسلة فى مواضع متفرقة من بحوث العلم أو الدين ..

ومنها ترتيب آفاق الموجودات كما تقدم فى فصل « التطور قبل مذهب التطور » من هذا الكتاب .

ومنها الكلام على « النفس والروح والعقل » والتفرقة بين مراتبها ، ابتداء من النفس التى كان أرسطو يجعلها قوة مشتركة فى الخلائق النامية ، إلى الروح التى تعلو على النفس فى هذا الاعتبار ويمتاز بها الإنسان عما دونه ، إلى العقل وهو الصفة الإلهية التى يتحلى بها الإنسان ويقترب بها من أفق الخالق أو المحرك الذى تقترب منه الموجودات بمقدار حركتها إليه ، وأشرفها حركة الإنسان إلى المعرفة وشوقه إلى الكمال

* * *

وعرف القول بالعالم الأكبر والعالم الأصغر بين المتصوفة ، كما جاء فى أبيات تنسب إلى الإمام على بن أبى طالب ولم تتحقق نسبتها إليه ، ومنها عن الإنسان :

دواؤك فيك وما تشعر وداؤك منك وما تفكر
وتزعم انك جرم صغير ، وفيك انطوى العالم الأكبر

ووافق القول بنجاة الإنسان بعقله ما ورد فى آيات القرآن الكريم من الأمر بالتفكير والتدبر ، فقال به كثيرون من حكماء الإسلام ثم فرق المتصوفة والمتنسكون بين ضربين من المعرفة أحدهما يستقيم بصاحبه على سنن الهداية ، والآخر يلتوى به دون قصد السبيل ، وكذلك قال ابن مسكويه بعد كلامه المتقدم فى فصل آخر : « إن هذا الشوق ربما ساق الإنسان على منهج قويم وقصد صحيح حتى ينتهى إلى غاية كماله وهى سعادته التامة . وقلما يتفق ذلك . وربما اعوج به عن السمت والسنن ، وذلك لأسباب كثيرة يطول ذكرها .. ولاحاجة بك إلى علمها الآن وأنت فى تهذيب خلقك . فكما أن الطبيعة المدبرة للأجسام ربما شوقت إلى ماليس بتام للجسم الطبيعى لعلل تحدث به وآفات تطرأ عليه بمنزلة من يشتاق إلى أكل الطين

وما جرى مجراه ، مما لا يكمل طبيعة الجسد بل يهدمه ويفسده – كذلك أيضا النفس الناطقة ربما اشتاقت إلى النظر والتمييز الذى لا يكملها ولا يشوقها نحو سعادتها بل يحركها إلى الأشياء التى تعوقها وتقصر بها عن كمالها ، فحينئذ يحتاج إلى علاج نفسانى روحانى كما احتاج فى الحالة الأولى إلى طب طبيعى جسمانى ، ولذلك تكثر حاجات الناس إلى المقوّمين والمنفعين وإلى المؤدبين والمسدّدين .. فإن وجود تلك الطباع الفائقة التى تنساق بذاتها من غير توقف إلى السعادة عسرة الوجود لا توجد إلا فى الأزمنة الطوال والمدد البعيدة . وهذا الأدب الحق الذى يؤدينا إلى غايتنا يجب أن نلحظ فيه المبدأ الذى يجرى مجرى الغاية ، حتى إذا لحظت الغاية تدرج منها إلى الأمور الطبيعية على طريق التحليل ثم يبتدئ من أسفل على طريق التركيب ... وينبغى أن يعلم أن كل إنسان معد نحو فضيلة ما ، فهو إليها أقرب وبالوصول إليها أحرى ، ولذلك تصير سعادة الواحد من الناس غير سعادة الآخر ، إلا من اتفق له نفس صافية وطبيعة فائقة فينتمى إلى غايات الأمور وإلى غاية غاياتها ، وأعني السعادة القصوى التى لا سعادة بعدها » .

ويرى المتصوفة أن المعرفة معرفتان كما يرى الحكماء من أمثال ابن مسكويه ، ولكنهم يقسمونها إلى معرفة لدنية ومعرفة كسبية ، ويقصدون بالمعرفة اللدنية ما يدركه الإنسان بالإلهام والاستشراق ويهتدى إليه برياضة النفس وقمع الجسد ، وهى معرفة غير معرفة التعليم والدراسة ، على حد قول سعيد بن أبى الخير فيما روى من كلامه عن ابن سينا « أن مايرى على ضوء المصباح وصل إليه هذا الأعمى بعكازه » .

ويتممه قول ابن سينا عن الحدس الصادق أنه حالة يقابل بها عقل الإنسان مصدر العقول جميعا ، فيدرك بالالهام والتوفيق ما ليس يدرك ابتداء بالدرس والبرهان .

* * *

وفى غير هذا الفصل بيان لمذهب حجة الإسلام الإمام الغزالى فى حكمة الموجودات وحكمة خلق الإنسان بين خلائق السماوات والأرضين ، وهو أمثل ما يقال عن سلسلة الخلق العظمى بتفسير أهل السنة ، على هدى القرآن الكريم ..

الإنسان في علم الحيوان
وفي علوم الأجناس البشرية

الإنسان من الفقاريات Vertedrates ،ومن الأوائل Primates بين الفقاريات ..

وهذه الأوائل تسمى أحيانا بالبشريات Anthropoids وتشمل الإنسان والقردة العليا ، وهى الغوريلا ، والاورانج ، والشمانزى ، والجيبون .

ويختص الإنسان من بين البشريات باسم يميزه وهو اسم الإنس Hominidae كما تختص القردة على عمومها باسم النسانيس simidae فيفرقهما هذان الاسمان حيث يجمعهما اسم البشريات .

ويرى بعض علماء الأحياء أن اسم الأنس يطلق على الكائن الذى وجدت بقية من جمجمته فى حفائر جاوة وأطلق عليه الدكتور دبوا Dubois الذى وجد تلك البقية Pithecanthropus Erectus لدلالة بقاياه على اعتدال قامته وامتيازه باتساع الدماغ على البشريات ، ولكن الرأى الغالب اليوم أن النوع الإنسانى بمزاياه التي بقيت له اليوم مخالف فى الخصائص الإنسية لصاحب تلك الجمجمة ، وأن هناك اختلافا غير قليل بين أناسى الحفائر من قبيله وبين الإنسان الذى يطلق عليه اليوم اسم الحيوان الناطق أو العارف أو المميز Homo Sapiens من الكلمتين اللاتينيتين «هومو» بمعنى بشر – و «سابيين» بمعنى ذى فهم أو ذى إدراك أو ذى كياسة .

* * *

وننقل هنا خصائص النوع الانسانى فى علم الحيوان ، كما أثبتها أقدم الكتب العلمية التى بحثت مذهب التطور باللغة العربية ، وعنيت بايراد أوجه الاعتراض عليه وأوجه الاختلاف بين الإنسان وغيره من البشريات من الوجهة التشريحية كما قررها علم الحيوان قبل نهاية القرن التاسع عشر ، ونعنى به كتاب « تنوير الأذهان فى علم حياة الحيوان والإنسان » لمؤلفه الدكتور بشاره زلزل – وقد صدر الإذن

بطبعه من نظارة المعارف بالآستانة بتاريخ ١٣ رجب سنة ١٢٩٧ وتم طبعه بعد ذلك بمطبعة مجلة الجامعة فى الإسكندرية .

قال المؤلف فى الصفحة (١٦٧) من المجد الأول : « فإذا نظر إلى الإنسان على سبيل المقابلة بتلك القرود التى هى لا شك أقرب الحيوانات إليه ، يرى أن الإنسان ماش منتصب القامة على قدميه ، لأن سلسلة ظهره مقوسة فى العنق وفى الظهر وفى الصلب ، وليس للقردة شئ من ذلك . وعلة ذلك على ما قال بعض المدققين زيادة نمو الدماغ ، لأنه يؤدى إلى كبر القحف ، فتتغير الجلسة بدليل عدم استوائها فى الأطفال . وبناء عليه تكون موازنة الرأس للبدن سببا لاستواء الجمجمة على العمود الفقرى ، وقالوا إن الأقواس الثلاثة المذكورة تكون فى المتمدنين أوضح مما هى فى المتوحشين . وعلى الجملة فإن موازنة الرأس مع البدن فى أكثر الحيوانات اللبونة تناط بالأربطة العنقية ، وهى قوية جدا فيها وفى القردة بالعضلات المتينة التى تندغم فى القذال والسناسن (النتوءات الشوكية) وهى فيها أطول وأغلظ مما فى الإنسان بضعفين ، ويتوقف عليها وعلى الرأس حفظ الرأس على الوضع الأفقى فلا يضغط على الصدر لذلك ، وليس الأمر كذلك فى الإنسان لأن ثقل جمجمته يتكافأ مع ثقل البروز الوجهى فيستوى الرأس على الهامة بدون أن يكون للعضلات والأربطة العنقية إلا المحافظة على الموازنة المذكورة ومقاومة ميل الرأس إلى الأمام . ولذلك كانت هذه الأربطة فى الإنسان ضعيفة . قال الأستاذ بروقا Procea وتابعه كثيرون ، أن السبب فى انتصاب قامة الإنسان واستوائه ماشيا على قدميه انما هو نمو الدماغ ، لأن هذه المشية تجعل اليدين مطلقتى الحركة والنظر متجها إلى الأفق . وطفل الإنسان يشبه الدبابات ، لأنه عديم الأقواس الفقرية فلا يظهر القوس العنقى إلا متى ابتدأ الطفل أن يضبط رأسه فى الجلسة التى يعود عليها ، وذلك فى الشهر الثالث من عمره . وفى السنة الثانية غالبا يتكون القوس الظهرى من جراء فعل العضلات الظهرية والصلبية للقطر السفلى للعمود الفقرى ، وذلك إذ يبتدئ الطفل أن يدرج .

« وبالجملة فإن الخاصة التى يصدر عنها حسن تقويم الإنسان ويتوقف عليها امتيازه على سائر الحيوان ، وتتفاوت بحسبها مراتب الأمم فى المدنية انما هى نمو

الدماغ وزيادة حجم الجمجمة ، وقد أجمع الباحثون على أن معدل وزن الدماغ فى الأوربيين يكون متوسطه فى الرجال ١٣٦٠ غراما ، وفى النساء ١٢٠٠ غرام ، وأعلاه ١٦٧٥ غراما ، وأدناه ١٠٢٥ غراما .. وما نقص عن ذلك يدل على البلاهة لعلة أو آفة .

« والقرود الشبيهة بالإنسان أكبر الحيوانات دماغا ، ومعدل وزنه المتوسط فيها ٣٦٠ غراما ، وغاية ما بلغه فى الأورانج ٤٢٠ غراما ، وقد عد ذلك من الشواذ ..وعلى قدر نمو الدماغ تزداد سعة القحف ويقل البروز الوجهى ، والفرق بين الإنسان والحيوانات من هذا القبيل أوضح من أن يبين ، فإذا نظرت إلى جمجمة إنسان من الأعلى لا ترى البروز الوجهى بخلاف ما إذا نظرت إلى جمجمة القردة وغيرها من الحيوانات . وإذا نظرت إلى جمجمة القرد من جانب ، ترى الوجه شاخصا إلى الأمام يؤلف خطا مستطيلا ، وذلك من الخصائص البهيمية . ويستدل على معرفة درجة هذا البروز بالزاوية الوجهية . وفضلا عن ذلك فإن الجزء الوجهى للعظم الوجنى قليل النتوء فى الإنسان بخلاف ما هو عليه فى القرود ، إذا نظرت إلى الجمجمة من الوراء لا ترى الثقب المؤخر ى فى جمجمة الإنسان وتراه كله أو قسما منه فى جمجمة القرود . وهذه الأعراف الدالة على الشراسة والصفات البهيمية فى القرود غير موجودة فى الإنسان وهى لازمة فيها عن نمو العضلات المضغية التى يترتب عليها تحريك الفكين الضخمين ، وعن نمو عضلات القذال التى يتوقف عليها اسناد الرأس على العنق . ومعلوم أن قحف الحيوان الصغير لا يتسع لاندغام هذه العضلات فيه ، فحيث وجدت اضطرت النسيج العظمى فى ابان نموه أن يهيئ لها مُندغما ، فنشأ عرفا . والدليل على ذلك أن هذه الأعراف لا توجد فى القرود الصغيرة ..ومثل ذلك يقال عن النتؤات الشوكية البارزة فى عنق الغول ، ولما كانت هذه الأعراف والنتؤات أصغر فى الأوران مما هى فى سائر القرود لم يتوازن رأسه على بدنه ، فيرى الخطم الثقيل مدلى على صدره ، ولذلك خص بالاكياس الحنجرية تلطيفا لضغط خطمه على مجرى الهواء ، أما الجيبون فخطمه صغير وأعرافه قليلة النتوء والأكياس الحنجرية غير موجودة فيه ، فهو أقرب القرود إلى الإنسان ولكن

طول ذراعيه يبعده كثيرا عن الإنسان ، لأنه يتوكأ عليهما فى مشيه كما يتوكأ الإنسان على هراوته ..

« ومن الخصائص الفارقة بين الإنسان والقرود ابهام الرجل ، فهو فى القرود أشبه بابهام اليد لأنه يقاوم كلا من الأصابع ويلامسها ، وهو ليس كذلك فى الإنسان ، لأنه يناسب فيه حالة المشى وانتصاب القامة كما أنه يناسب فى القرد حالة التسلق والإمساك .

« ومن هذه الخصائص تباين شكل الأسنان وحجمها .. فأسنان الإنسان بالنسبة إلى جسده أصغر مما هى فى القرود ، وإذا تأملت فى الصورة راعتك من منظر الغول أنيابه . أما النواجذ والطواحن فى هذه الحيوانات فكبيرة جدا ، بالنسبة إلى طول القسم الوجهى من الجمجمة ... وما عدا ذلك فإن وضع الأسنان فى نسخ الإنسان على نسق منتظم خلافا لما يرى فى القرود حيث يتخلل نابى الفك العلوى وثناياه خلاء تتداخل فيه أسنان الفك ... والخصائص المميزة للإنسان تزداد وضوحا بتقدم المدنية والعمران ، لأن اختلاف طرق المعاش يؤدى إلى تنويعها فتبتعد عن الحالة الطبيعية كما ترى فى أقواس العمود الفقرى ، فإنها فى المتمدنين أكثر وضوحا مما هى فى المتوحشين » .

وترجع علوم الإنسان إلى علم الحيوان لدراسة تواريخ البشر الاجتماعية ، كما ترجع إليه أحيانا فى دراسة تقدمهم الثقافى منذ وجد الإنسان بخصائصه المعروفة للحيوان الناطق Homo Sapiens وقبل وجود هذا الإنسان فى العصور السحيقة التى استخدمت فيها الآلات على شئ من الخشونة البدائية . ويشيع — من أجل هذا — أن هذه العلوم قد تأثرت بمذهب التطور كما بسطه لامارك ، وكما بسطه دارون من بعده ، ولكن الأصح أن المعلومات المتشعبة التى تجمعت من درس الحفائر وطبقات الأرض ورحلات الجغرافيين واللغويين بين أرجاء العالم القديم والعالم الحديث .. قد كان لها أثرها البين فى مذهب التطور وفى سائر العلوم الإنسانية المتعددة ، ومنها علم السلالات وعلم الإنسان وعلم الاجتماع وعلم النفس وعلوم المقارنة بين اللغات .

* * *

ومحصل هذه المعلومات المتشعبة بين العلوم الإنسانية أن البشر وجدوا وانتشروا على جهات متقاربة من العالم القديم منذ العصر « الميوسيني » Miocene قبل نحو مليوني سنة ، وأنهم كانوا يومئذ على حالة متوسطة بين الحيوان الناطق وطبقة بشرية دون هذه الطبقة ، ثم تميزت خصائص الإنسان بعد ابتداء العصر الجليدى منذ نحو مليون سنة ، ولكن الإنسان الذى استخدم الآلات وصاغها من العظام والحجارة لا يعرف له تاريخ جلىّ قبل مدة تتراوح فى تقدير العلماء بين مائتى ألف ومائة ألف سنة . وكانت بداية انتشار الجماعات الإنسانية بين القارات الثلاث منذ العصر الحجرى الأول ، ثم تلاه العصر الحجرى الحديث الذى تميَّز فيه الإنسان بأكبر مزاياه ،وهى الحياة الاجتماعية والقدرة على استخدام الآلات والنار وتسخير سائر المخلوقات ، وتدجين الأوابد على مراحل متتابعة ، أولها مرحلة تدجين الكلب للاستعانة به فى الصيد ، وتأتى بعدها مرحلة تدجين الماشية والحمار والحصان للاستعانة بها فى الزراعة وفى الانتقال من مكان إلى مكان حيث يوجد الكلأ والماء .

وفى هذه المراحل ملك الإنسان زمام الخليقة ، وبلغ المنزلة التى استحق بها أن يسمى نفسه سيد المخلوقات ، وتمهد له سبيل السيطرة على الحيوان والنبات وظواهر الطبيعة حينما احتاج إليها ، ويعتقد بعض علماء السلالات البشرية أن الإنسان تقدم شأوه الأول فى صراعه للحيوان وظواهر الطبيعة ، ثم تقدم شأوه الثانى — والأهم — فى صراعه بينه وبين أبناء نوعه ، واتسع الفارق بين ملكاته فى شأوه الأول وملكاته فى شأوه الثانى بمقدار اتساع الفارق بين الحيلة التى تلزم للتغلب على الحيوان والحيلة التى تلزم للتغلب على أمثاله من الآدميين ، ثم تلزم لابتداع وسائل أخرى للتغلب كلما تساوى الناس فى وسائلهم المشتركة .

وقد كان الناس قبل شيوع الآلات وتدجين الحيوانات سلالة واحدة ، لا تختلف فى الملامح والألوان ولا يظهر بين بقاياهم الأثرية ما يدل على فارق عنصرى كالفوارق التى تختلف بها اليوم سلالات البشر من سكان العالمين القديم والحديث ..

* * *

ولكن ابتداء التغالب بين البشر فرق مواقع السكن ، وفتح الطريق لاختلاف السلالات على حسب الاقليم والمناخ والقدرة العقلية على الاحتفاظ بالمسكن أو على

الهجرة منه إلى غيره ، ويعزى إلى هذا التفرق ظهور السلالات الأربع المشهورة .. وهى التى تسمى عند علماء السلالات بأسماء مختلفة ، أوضحها أسماء ألوان البشرة، وهى البيضاء ، والسمراء ، والصفراء ، والسوداء ، وقد أحصى بعض العلماء أربعة وثلاثين لونا تتراوح من الشقرة إلى السواد الفاحم ، ولكنها كلها تئول إلى تلك السلالات الأربع عند التمييز بينها بأشكالها وملامحها الجسدية .

وأبرز الفوارق بين السلالات — غير لون البشرة — شكل الشعر والأنف والفك وطول القامة . وقد تعرف القرابة بين السلالات التى انفصلت بين القارات بما بينها من التقارب فى شكل الشعر دون غيره .. فيرجحون أن سكان أمريكا الأصلاء وسكان آسيا الشرقية من أصل واحد ، لما بينهم من التشابه فى استقامة الشعر وخشونته ولونه الضارب إلى السواد . وقد أمكن اليوم تعليل أبرز الفوارق بين سلالات البشر بأسباب المناخ والأقاليم ، فنسب الأنف الافطس والجلد الأسود إلى فعل الحرارة ، كما نسب الأنف الأقنى الطويل والجلد الأبيض إلى برد الإقليم واحتياج سكانه إلى وقاية الرئة واستغنائهم عن الصبغة الجلدية حيث يلطف وقع الأشعة على البشرة . وبمثل هذا السبب يعللون اختلاف الشعر بين النعومة والتموج وبين الخشونة والتجعد ، وبين الشعر الحريرى والشعر الصوفى فى الشكل والملمس، ولا يصعب تعليل خاصة عنصرية واحدة بعلة — أو مجموعة من العلل — ترجع إلى المناخ وأحوال المعيشة .

إلا أن الفوارق الفكرية أصعب من هذه الفوارق الجسدية تعليلا بأسباب المناخ وأحوال المعيشة ، وأبرزها فوارق اللغة لأنها قابلة للضبط والتقسيم ، أو هى أدنى إلى التقسيم بالضوابط والعلامات من فوارق التفكير والبواعث النفسية ، وقد تكون علامات اللغة مما يستعان به على جلاء الفوارق الفكرية وفوارق الشعور والاعتقاد .

واللغات — فى تصنيف بعض علمائها — قد تنقسم على حسب الأجناس والسلالات التى تتكلمها ، ولكنه تقسيم يقع فيه الاختلاط لاشتراك الأمم فى لغة واحدة ، أو عائلة لغوية واحدة ، مع انتمائها إلى أصول متباعده فى أجناسها وعناصرها ، وخير من هذا التقسيم أن تقسم اللغات على حسب تكوينها وتكوين الكلمات وقواعد النحو فى مفرداتها وتركيبها ، وهو تقسيم يضبط الفوارق بينها ضبطا

كافيا للموازنة بينها والمقابلة بين عوامل التقدم وعوامل الجمود والتأخر فى تراكيبها وتعبيراتها .

وتنقسم اللغات من حيث التكوين إلى لغات النحت ، وهى التى تتكون فيها الأسماء والأفعال والصفات بإدخال المقاطع الصغيرة عليها أو إلحاقها بها ، ولغات التجميع ، ولغات الاشتقاق .. فلغات النحت هى التى تتكون فيها الأسماء والأفعال والصفات بإدخال المقاطع الصغيرة عليها أو إلحاقها بها ، وتسمى هذه اللغات بالغروية فى اصطلاح الأوربيين : Agglutinative

ولغات التجميع هى اللغات التى يقع فيها النحت ويعمل فيها التنغيم عمله فى اختلاف المدلول مع الزيادات التى تداخل على الكلمات أو تضاف إليها ، ومن فروع هذه اللغات ما تتكون أسماؤه وأفعاله فى جملة تتألف من عدة مقاطع مرتبة أو غير مرتبة على نسق واحد فى جميع الكلمات ، ويغلب على اللغات التى تتكون هذا التكوين أن تسمى بالمجمعة Polysynthetie مع وصفها بالغروية إلى جانب التجميع .

ولغات الاشتقاق هى اللغات التى يعم فيها الفعل الثلاثى فى كل مادة ، وتجرى قواعد الصرف فيها على المخالفة بين الأوزان بحسب معانيها ، ويكثر فيها اختلاف الحركة فى أواخر الكلمات على حسب موقعها من الجملة ..

* * *

ويشيع النحت فى اللغات الهندية الجرمانية ، كما يشيع التجميع فى اللغات المغولية ولغات القبائل الأمريكية الأصيلة . أما الاشتقاق فهو من خصائص اللغات السامية ، وتكاد اللغة العربية أن تنفرد من بينها بعموم الاشتقاق واطراده مع مراعاة الحركة على أواخر الكلمات حسب مواقعها من الجمل المفيدة ..

وربما اتفق اللغويون على قواعد عامة ، عملت فى تطور هذه اللغات جميعا ولا تختص بها لغة منها دون سائرها . ومن هذه القواعد العامة أن الكلمات الانفعالية التقليدية أسبق من الكلمات الارادية الفكرية ، ويريدون بالكلمات الانفعالية ما يصدر عن الإنسان عفوا من الأصوات والصيحات التى تعبر عن الفرح أو الفزع أو

الدهشة ، وما تكون الكلمة فيه أحيانا من قبيل المحاكاة الصوتية Onomatopaeic كاسم البلبل ، والككو ، وألفاظ الدق والقطع والوسوسة وما جرى مجراها .

ويريدون بالكلمات الارادية الفكرية كل ما يقصده المتكلم ويجرى فيـــه على القياس والاستعارة وإطلاق القاعدة الواحدة على المتشابهات لفظا أو لفظا ومعنى ..

وأكمل اللغات على سنة التطور والتقدم فى الثقافة تلك اللغات التى انتظمت قواعدها الصوتية Phonologie وقواعدها الصرفية Morphologie وقواعد التراكيب والعبارات Syntax ويضاف إلى الظواهر الصوتية والصرفية والعبارية فى قياس تطور اللغات ظاهرة التمييز والتخصيص فى الصفات إجمالا وفى المفردات على التعميم ، كالتمييز بين المذكر والمؤنث والجماد ، وبين المفرد والمثنى والجمع ، وبين جمع القلة وجمع الكثرة ، وبين الصفات العارضة والصفات الملازمة ، وهى جميعها من المزايا التى لا يحق لكاتب اللغة العربية أن يمر بها عرضا إذا جاز ذلك لمن يكتفى بسرد العلامات اللغوية ويغفل دلالتها عند تطبيقها على لغته وقواعدها .

فنى صدد الكلام على التطور الإنسانى ، وعلى تطور الإنسان الناطق بصفة خاصة ، يحق للباحث أن يشير إلى دلالة الدراسات اللغوية على مكان اللغة العربية من التطور وتحقيق الخاصة الإنسانية الكبرى ، وهى خاصة النطق والتعبير .

فقيام اللغة على القواعد الفكرية دليل لاشك فيه على سبق اللغة وتقدمها على لغات الارتجال الجزاف فى وضع الكلمات ، سواء بالمحاكاة الصوتية أو بالتكرار على غير قياس ، وشيوع القاعدة فى فعل كل مادة وفى تصريف الأسماء والصفات منها دليل على سبق التفكير فى التعبير وتعميمه على الأحداث والمعانى غير موقوف على أصوات الانفعال والمحاكاة ، ويتبع ذلك شيوع الاستعارة وإمكان الجمع بين الوضع الحقيقى والوضع المجازى فى كلام المتكلم لتوسيع المعانى وبناء الكلمات على المضاهاة بين المدلولات .

وفى قدم الإنسان الناطق Homo Sapiens أقوال متفرقة يأخذ كل فريق من علماء الأجناس البشرية بقول منها ، ويبتعد بعض الابتعاد عن قول مخالفيه .

ورأى بيرى واليوت سميث أن الثقافات البدائية فى العالم المعمور تنتمى إلى أصل

واحد وهو أصل الثقافة بوادى النيل ، ومنه انحدرت إلى القبائل القريبة ثم إلى القبائل البعيدة ، فتخلفت معها وانتكست بانتكاسها أو تقدمت بتقدمها على حسب نصيبها من التقدم .

ورأى الأكثرين أن نطاق الثقافة الأولى أوسع من ذلك فى أصوله ، وأنه يشمل الحوض الشرقى للبحر الأبيض المتوسط ووادى النهرين وأقاليم الشمال من الهند والصين .

والرأى الذى يأخذ بالمفهوم المنطقى ولا يتكلف الاستقصاء والمقارنة بين الآثار يحكم بضرورة تقدم الإنسان الناطق حيثما وجد فى بقعة من بقاع الأرض ، ولو لم ترتبط هذه البقاع برابطة جغرافية أو عنصرية تدل عليها الآثار والمخلفات ، ولا مانع عند أصحاب هذا الرأى من استقلال ثقافة المكسيك وثقافة اليابان ، وإن جاز الاتصال بينهما قديما قبل عصور التاريخ ..

* * *

والآن ، وقد مضت هذه الأشواط الطوال على الإنسان الناطق ، وعلى ثقافاته المتوالية ، يعتقد علماء الدراسات البشرية أن هذا « النوع » يقوم على مفترق الطرق بين وجهات الأمس جميعا وبين قبلة فى الغد المجهول قد تستقيم به على نهج غير مسبوق ، وتشرع له دستورا من العلاقات بين أقوامه وآحاده لم يعرف لها مثال فى حضاراته الغابرة أو حضاراته المعاصرة .

إن الأشواط الغابرة قد انقضت – كما تقدم – على مرحلتين شاسعتين ، استغرقتا مئات الألوف من السنين : مرحلة الصراع مع الطبيعة ، ومرحلة الصراع بين الإنسان والإنسان للغلبة على سيادة العالم المعمور .

ولا تزال المرحلتان ماضيتين فى عملها السياسى والاجتماعى ، وفى عملها الفكرى والأخلاقى ، فإن تسخير الذرة إنما هو امتداد لاستخدام النار بدأ قبل التاريخ ولم ينته إلى غايته حتى أواسط القرن العشرين . وإن الصواريخ الموجهة بين القارات إنما هى امتداد السلاح الحجرى قبل ألوف القرون ، ويتساءل المستطلعون للغد – من علماء الدراسات البشرية وغيرهم – هل من جديد ؟ ..

فإن يكن شك فى الجديد المجهول ، فالأحوال المكشوفة للنظر تنبئنا أن القديم

غير القديم ، وأن التغيير الذى طرأ على القديم إنما هو هذا التقارب الدائم بين أجزاء العالم وهذا التشابك المتغلغل إلى الأعماق فى مصالح الأمم والجماعات ، وهذه الوحدة العالمية التى لا تنفصل فيها جماعة من الناس بخطر يصيبها ولا يصيب معها القريب والبعيد من الجماعات ، شعوبا كانت أو طوائف وطبقات ..

بقى الصراع بين الأمم ، وتغيَّر منه أنه كان بالأمس صراعا بين أمتين لتغليب إحداهما على العالم المعمور حول الأمتين ، فأصبح اليوم صراعا بين شطرين من أمم العالم كله لتغليب نحلة اجتماعية أو « ايديولوجية » على العالم كله بسلاح القوة أو سلاح الدعاية ، ومصير هذا الصراع هو الغد المجهول الذى يطالع الإنسانية بإحدى حالتين : وحدة عالمية تجرى فيها دساتير الحكم والتفكير والأخلاق على سنة « التضامن » والتسامح ولو بين المتخالفين فى تفصيلات هذه الدساتير ، أو حرب جائحة تئول بالثقافة والآداب النفسية والعقلية إلى الشتات والانتكاس ، وتعود بالأمم إلى أوائل شوط جديد يعيدها كرة أخرى إلى جاهليتها المتروكة منذ دهور .

وعلى العلم اليوم أن يرصد ذلك البعث ، أو تلك القيامة ، بما يفتح له من وسائل النظر إلى الواقع المعلوم والغيب المجهول .

الإنسان في علوم النفس والأخلاق

أوسع المذاهب الأخلاقية تحتويه فكرة الحيوان الاجتماعى التى عبر عنها أرسطو بقوله : « إن الإنسان مدنى بالطبع » وجعلته نموذجا وحيدا فى الكون حين وصفته بأنه « حيوان ناطق » ثم وصفته بأنه حيوان اجتماعى ، تلازم فيه صفة النطق صفة الاجتماع .

فليس بين الأحياء على وجه الأرض حيوان يوصف بالنطق وبالفطرة الاجتماعية غير الإنسان ..

واسم « الإنسان » وحده باللغة العربية يغنى عن مذهب ، لأنه اسم يعتبر هذا الكائن الوحيد أساسا للألفة الاجتماعية حين تنسب لغيره . وقد لعب الشعراء بما فى الكلمة من الجناس اللفظى فقال أبو تمام :

لا تنسين تلك العهود فإنما سميت إنسانا لأنك ناسى

وقال غيره :

وماسمى الإنسان إلا لنسيـــــــــه ولا القلب إلا أنه يتقلب

ولكن المقابلة بين الكلمات قديما وحديثا تبين لنا عن أصل هذا المعنى .. فالمكان الأنيس هو الذى يسكنه الناس ، والحيوان الأنيس هو الذى يألف الإنسان فى مسكنه ، وغير ذلك من الأمكنة أو الخلائق فهو المكان الموحش وسكانه هم الوحوش .

ويسرى هذا المعنى إلى اللهجات البدوية الحديثة ، فيطلق أهل البادية فى الصحراء الغربية اسم « العشرية » على الشاطئ المأهول ، ويطلقون اسم الخلاء على ما وراء ذلك من رمال الصحراء التى لا تزرع ولا ترعى ، ولا يسكنها الإنسان ولا الحيوان فى عشرة طويلة .

إن الحضارة الأوربية — منذ عهد الفلسفة الاغريقية — لم تهتد إلى مذهب محيط « بالإنسان الأخلاق » أوسع من هذا المذهب ولا أقرب منه إلى لباب المذاهب الأخرى التى ظهرت بعده فى هذه الحضارة .

أما الحضارة العربية فصفة الانسان فى لغتها وتفكيرها ألصق به من أن تكون مذهبا تقابله مذاهب أخرى فى معناه أو غير معناه .. إن صفة الإنسان فى هذه الحضارة العربية هى اسمه الذى لا ينفك عنه ، وما من عجب أن « تنبت » هذه الصفة من البادية حيث يتضح الفاصل بين خصائص الأنس وخصائص الوحشة غاية الاتضاح .

وتكاد كل حضارة كبيرة أن تمتاز بطابعها فى تعريف الإنسان الأخلاق ، أو الإنسان صاحب الضمير الذى يناط به الحساب ويوصف بالحميد أو بالذميم من الأعمال والعادات .

فالإنسان فى الحضارة الإنسانية هو ظاهر وباطن كالوجود الذى خلق فيه ، وظاهره تحكمه قوانين السلوك العملى ويقاس بالمقاييس الاجتماعية وبكل ما ترتبط به مصالح المجموع Pluralistie وتسمى هذه القوانين بآداب الميامزا Miamsa ويظن أنها وفدت إلى الهند مع الشعوب الفاتحة التى جاءتها « بأدب العمل والحركة » فتميزت فلسفتها بهذا الطابع بين فلسفات الانزواء والهرب من الحياة .

وباطن الإنسان يستقبل باطن الوجود، ويسمون فلسفته بالسانيساSannyasa أى فلسفة التجرد من المادة ، وطلب الخلاص من لعنة الولادة والموت بانكار الجسد وقمع الشهوات الدنيوية والعزوف عن صغائر الحاجات وكبائرها على السواء ، ويوشك أن يكون كل مذهب « فصامى » على هذا النحو مستمدا فى النهاية من أصوله الهندية ، وإن كانت نهاية المذهب إلى « اليوجا » التى تجعل الجسد والطبيعة كلها تبعا للرياضة الروحية ..

وحضارة الصين تميز الإنسان بالمعرفة وتوافق الحضارة الأوربية التى جعلته « حيوانا ناطقا » اجتماعيا كما توافق تعريفه العلمى الذى يعنى أنه مخلوق مميز ومخلوق صاحب ذوق وإحساس Homo Sapiensعلى حد اسمه المأخوذ من اللاتينية . ولكن

المعرفة فى مذاهب الصين وهى « الزن » Zen ليست علوما منفصلة المقدمات والنتائج مشروحة القضايا والبراهين وإنما هى حالة كحالة الرشد الذى يبلغه الشيخ المحنك بالنسبة لغرارة الطفولة ، قوامها القدرة على مقابلة الحوادث والأشياء مقابلة التصرف الرشيد ، لأسباب قد تعرف عند الشرح والتفصيل وتعرف لها براهينها وأسانيدها بالمعانى والكلمات ، ولكنها حاضرة قبل ذلك حضورا ساكنا رصينا فى الذهن بغير معانٍ أو كلمات ، وشعارها عند الحكماء « إن من يعرف لا يتكلم ومن يتكلم لا يعرف » .

وهذا « الإنسان فى مذاهب الحضارات الكبرى مقبول بتعريفاته وصفاته فى جميع الديانات والعقائد الروحية ، ففى وسع العالم الدينى أن يقول بصفة جامعة من هذه الصفات دون أن يعرض لمناقشتها ، أو يناقض اعتقادها الدينى بتفسيرها على معنى من مختلف معانيها . وفى وسع العالم المادى أن يفسر صفات الإنسان على حسب هذه التعريفات دون أن يلتمس لها مرجعا وراء المادة والطبيعة محالا إلى عالم الغيب أو ملموسا مدركا فى عالم الشهادة ..

ففى وسع كل قائل بمذهب من هذه المذاهب أن يعلل أخلاق الإنسان جميعا بتنازع البقاء مع أبناء نوعه أو مع الطبيعة وعناصرها .

وفى وسعه أن يعلل الأخلاق الإنسانية جميعا بغريزة حفظ النوع على سعتها ، أو بالغريزة الجنسية فى نطاقها المحدود بعلاقات الجنسين.

وفى وسعه أن يعلل تلك الأخلاق بطلب القوة والسيادة ، أو بطلب الأمن والدعة ، أو باستيحاء الطبيعة وتصوير الإنسان كل ما يحسُّه فى خلده بصور الأحلام ومخلوقات الخيال .

وإنما يبرز خلاف الرأى بين الدينيين والماديين حين يبحثون فى الملكات الفكرية التى تناط بها الأخلاق فى كل تعريف من هذه التعريفات : هل تناط بحياة روحية من مصدر وراء الطبيعة والمادة ، أو هى منوطة فيه بوظائف الحياة الجسدية التى لا فرق بينه وبين الحيوان فيها غير فرق الدرجة و « الكيفية » ؟

مثال رأى الماديين يقول به ريدلى Ridley صاحب كتاب الإنسان فى حكم العلم Man,The Verdict of Science ويستند فيه إلى آراء جماعة من علماء الكيمياء الحية وعلماء البيولوجى وعلماء الاجتماع ، ويوجزه فى بضعة أسطر فيقول : « إن الإنسان – وإن كان قد أبان عن قوى عقلية نفسية تعلو كثيرا على كل قوة يبين عنها كائن حى سواه – لا يزال نوعا حيوانيا له قرابته بالخلائق السفلى . ولم ير الإغريق الأقدمون داعيا إلى فصل الإنسان عن جمهرة الكائنات الحية التى كانوا يشاهدونها حولهم ، وقد أدخله أرسطو فى نطاق برنامجه الحيوى مع سائر الحيوان والنبات ، وجاء لينوس (١٧٠٧ – ١٧٧٨) بعد قرون عدة فنشر كتابه عن نظام الطبيعة سنة (١٧٣٥) وعد فيه نوع الإنسان بين أنواع الحيوان ، وقد عده فى طبعة الكتاب الأولى بين ذوات الأربع من القردة والدب الرسيف .. وبوفون الفرنسى معاصر لينوس ، وضع الإنسان فى المملكة الحيوانية واجترأ على أن يحتمل نسبته مع القرد إلى أصل واحد ، وكان هذا أكثر مما يطاق فى عرف السلطة الدينية الفرنسية فخيروه بين النبذ وبين تعديل رأيه ، وهو تخيير لم يتعرض له لينوس فى البلاد السويدية . وقد وضع الإنسان وضعه المحكم في تعريف «الزولوجيين» فجعلوه بين أعلا الأحياء وهى ذوات الفقاريات ، وجعلوه بين هذه فى ذروتها وهى الحيوانات اللبون ، وأعلاها بعد ذلك طبقة الأوائل التى تشمل القردة والنسانيس . وهم يقسمون الأوائل أقساما أعلاها القسم البشرى Homo وهو القسم الذى كان ينتمى إليه بعض الأحياء ممن بقيت آثارهم فى حفائر الطبقات الأرضية ، ولكن الإنسان الحديث وحده هو الذى يصدق عليه اسم البشر الناطق أو الحيوان العارف .

* * *

فالماديون من البيولوجيين والزولوجيين والترولوجيين يرون أن الارتفاع بالإنسان إلى ذروته المتفردة فى تقسيمات الحيوان كاف لفهم الفارق الكبير بينه وبين الأوائل Primates وبين هذه الأوائل وما دونها من أقسام الفقاريات وما دون الفقاريات ، ولا حاجة – مع هذا الفارق فى الدرجة – إلى فارق آخر من عالم وراء المادة والطبيعة ، وهو فارق الروح .

وقد اشتهر فى أواسط القرن العشرين علمـاء بيولوجيون من رجال الدين المسيحيين يسلمون كل درجة من درجات هذا التقسيم ، ولكنهم يقولون إن الفارق لا يفهم إلا على وجه واحد ، وهو أن الفوارق جميعا بين درجات الأحياء إنما ينتهى إلى التدرج بينها فى الاستعداد للعقل والوجدان ، وإن أرفع درجة يرتقى إليها الحيوان الأعجم لا تمنع أن تكون إعدادا للبنية الحيوانية أن تتلقى ما فوق ذلك من ملكات العقل والوجدان .

وأشهر القائلين بهذا الرأى الأب بيير تيلهارد دى شاردين Pierre Telilhard de chardin البيولوجى المتخصص لدراسة علم الحياة والحفريات وأحد الذين أسهموا فى كشف إنسان بكين وألقوا الدروس العلمية فى المعاهد الكبرى ، ومنها معهد اليسوعيين العالمى بالقاهرة ، وكتابه « ظاهرة الإنسان » The Phenomenon of Man أحد الكتب العلمية الفلسفية التى عدت فى أواسط القرن العشرين بعض معالم الطريق فى اتجاه الفكر الحديث ، وقد سلم فيه تقسيمات علم الحياة وعلم الأحياء حرفا حرفا ثم عقَّب عليها سائلا : « إذا كانت قصة الحياة لا تعدو أن تكون حركة إلى الوعى وراء نقاب من تركيب الأجهزة العضوية ، فالنتيجة اللازمة حتما عند بلوغ التركيب غايته المقاربة للانسان أن يتمثل هذا الاقتراب فى ابتداء ظاهرة الأهبة السيكولوجية وبزوغ ظاهرة الذكاء . ومن ثم يلقى الضوء على « المفارقة الآدمية » نفسها ، لأننا قد نشعر بالحيرة إذا لاحظنا قلة الفارق التشريحى بين الكائن البشرى وبين من دونه من البشريات على الرغم من سموه العقلى فى بعض مظاهره ، فانه فارق يقل حتى نكاد نتخطاه على الأقل من جانب أصوله ، ولكن أليس هذا بعينه ما ينبغى أن ينتظر ؟ »

ويجلو هذا الرأى بالأمثلة المحسوسة عالم آخر متدين ، هو الأستاذ روسل هاريسون الذى يقول فى كتابه عن مصير الإنسان : «إننا لانعرف الموسيقى إذا عرفنا كل دقيقة وجليلة من الأخشاب والمعادن والأوتار التى تدخل فى تركيب العود والقيثار والبيان . وبعض علماء الحياة يراقبون تغذية الحيوان ، ويلاحظون أن العواطف تتأثر ببعض الأغذية فتنتقص أو تزيد .. لاحظوا أن الفأرة التى يقل

المنجنيز فى غذائها تهمل صغارها ولا تعطف عليهم ، وإنه لحسن منهم أن يلاحظوا هذا ويصلوا منه إلى زيادة حصة الحيوان من ذلك الغذاء ، ولكنهم إذا جاوزوا ذلك فقالوا إن عاطفة الأمومة هى مقدار معلوم من المنجنيز فهم مخطئون ، وخطؤهم فى هذا الرأى كخطأ القائل أن نغمات الموسيقى أخشاب وأوتار ..» .

ويتبدل منحى الاستدلال المنطقى والعلمى ، إذن ، بهذا التفسير لمذهب النشوء القائل بارتقاء الحيوان والتشابه بين كل درجة من درجاته ومادونها وما فوقها فى الاستعداد لأهبة العقل والوجدان ، فلا بد أن يحدث ذلك للوصول إلى الجهاز الحيوانى الصالح للنهوض بمطالب الروح والوجدان .وينقلب الأمر على الماديين فيصبح المادى وهو المسئول أن يقول للمعترضين عليه من رجال الدين : لماذا يكون معيار التقدم زيادة الوعى على درجات تناسب الترق فى تركيب البنية العضوية ؟ وكيف يتأتى هذا الانتظام فى الأداة وفى النتيجة إن لم يكن هنالك طريق مرسوم لغاية مقدورة ؟ ..

ومن العلماء غير الدينيين من أقنعته هذه الحجة بعض الاقناع ووافقت مذهبه فى اقتباس « الديانة » من العلم أو « الديانة بلا وحى » كما يسمونها فى اصطلاحهم المتفق عليه **Religion Without Revelation** فقال علم من أعلامهم وهو السير جوليان هكسلى فى تقديمه لكتاب ظاهرة الإنسان : «إننا معشر بنى آدم نحتوى فى أنفسنا كل ما فى الأرض من الإمكانات الهائلة ، وفى مقدورنا أن نزيد ما يتحقق منها على شريطة الازياد من العلم والمحبة » .

وتكاد هذه الأسطر أن تكون نسخة معنوية ، من كلمات الختام التى انتهى إليها السير جوليان هكسلى فى كتابه « قنانى جديدة لخمرة جديدة » اذ يقول :

« إن صورة الإنسانية المتطورة أعانتنى على أن أرى — من وجهة المبدأ على الأقل – أن الدين والعلم قد يتفقان ، وقد هدتنى إلى مخارج من العطف والفكر يحق لنا أن نطلق عليها اسم الدين ، ولكنها كانت لولا ذلك خليقة أن تكبت وتترك نسيا منسيا .. فهى بهذه المثابة تعلمنا كيف يسهم العلم فى تقدم الدين ، وقد قرر جدى فى مقالة عن اللاأدرية كلاما فى هذا الصدد كأنه غنى بذاته عن البرهان

فقال : « إن كل إنسان ينبغى أن يعطى سببا للإيمان الذى يؤمن به .. وإن عقيدتى هى الإيمان بالامكانات الإنسانية وأرجو أن أكون قد وفقت إلى شرح أسبابها » .

* * *

على أننا نجتزئ بأحدث الأقوال التى انتهى إليها غلاة الماديين بيانا لمزية العقل فى الحيوان الناطق ، فلا نحسب أنهم قد استطاعوا أن يدعوا له مزية أقل من مزية الروح فى ارتباطها بالحياة أو بالمؤثرات الحيوية على وظائف البنية الإنسانية على الخصوص ، وربما كان تعويلهم على دلالة الجهاز العصبى فى الحيوان عامة وفى الإنسان خاصة أشد من تعويل العلماء المتدينين على دلالة الارتقاء إلى الملكات الروحية بمقدار الارتقاء فى التراكيب الجسدية .

فالأستاذ بافلوف المشهور بتجاربه الجسدية النفسية يقول : «كلما أحكم كيان الجهاز العصبى فى بنية الحيوان كان أقرب إلى التركز ، وكان أقدر على المزيد من التأثير بوظائفه العليا على التوزيع والتنظيم فى أعمال البنية كلها » ..

وقد أثبت زملاء بافلوف وتلاميذه أن بقاء الحياة بعد توقف نبض القلب مرهون بسلامة المخ الذى يحتفظ بسلامته بعد توقف النبض بنحو ست دقائق ، وأن الوعى الإنسانى له أثره حتى فى تأثير السموم القاتلة . .

جاء فى كتاب مسالك العلم الذى طبع فى موسكو سنة ١٩٥٦ :

« من العقاقير السامة القوية التسميم مادة البوتاسيوم سيانيد .. وهى سريعة الفعل تقتل على الأثر بمقاديرها الكبيرة ، وتسمم جميع الخلايا لأن الخلايا تحت تأثيرها لا تتشرب الأكسجين ولا تتنفس ، وإذا حقنت به عروق قطة ماتت على الأثر كأنها أصيبت بصاعقة ... وقد حقنت به اثنتا عشرة قطة فماتت ست منها خلال بضع ثوان ، ولكن الست الباقية لم تتأثر كانما حقنت بماء ، وهى الست التى خدرت بالأثير المعقم أثناء الحقن (١) .. » .

إلا أن سلطان الوعى على الإنسان قد بلغ درجته العليا ، ويقول بافلوف فيما

---

(١) Paths of Science by L. Friedland

رواه عنه الكتاب نفسه : « عندما بلغ تطور العالم الحيوانى منزلة الإنسان نشأت اضافة هامة جدا فى جهاز النظم العصبية العليا .. ففى الحيوان تتمثل وقائع العالم على الأعم الأغلب بما تحدثه من المنبهات التى تصل إلى المخ فتبعث التنبيه إلى حواس النظر والسمع وسائر الحواس الحيوانية ، وهذه أيضا هى المنبهات التى تصل إلينا عن طريق المؤثرات والأحاسيس والخواطر من العالم الطبيعى أو العالم الاجتماعى الذى يحيط بنا ، ما عدا المؤثرات التى ينفرد بها الإنسان وتؤدى له وظيفة التَنَبُّهِ لذلك التنبيه » .

ولا يدعى « للحيوان الناطق » ولا للحيوان ذى الروح مزية أكبر من هذه المزية، فهى تكاد أن تقـــرر للروح سلطانا على الجسد كسلطان « اليوجا » المعروف عند نساك الهند ، وتكاد أن تجعل الأخلاق جميعا مسائل عقلية تملك التأثير الأكبر — إن لم نقل التأثير المطلق — فى كيان الإنسان وفيما هو أهل له من أهبة العقل والوجدان .

مُسْتَقبلُ الإنسَانْ فِي عُلومِ الأَحيَاءْ

إن العلم الطبيعي حذر فى تقرير مذاهبه وأحكامه ، وأكثر ما يستبيحه لنفسه إذا وصل إلى شئ لم يثبت لديه كل الثبوت ، ولم ير من أمانة العلم كتمانه واخفاءه ، أن يعلنه على أنه ظن مرجح وأن موضع الشك فيه قابل للدفع والتوضيح بدليل منتظر يذكر أسباب انتظاره . وكذلك فعل دارون عند إعلانه لنظريته فى تحول الأنواع .

وإذا وازنا بين حذر العلم فى الحكم على الماضى وحذره فى الحكم على المستقبل المحدود ، فهو فى الحكم على المستقبل أحذر وأقرب إلى التردد بل إلى التوقف عن مجرد الظن إلا مشفوعا بالاعتذار . ويرى هذا الاختلاف بين حذره من أحكام الماضى وحذره من أحكام المستقبل فيما قرره عن فعل التطور أمس وفعل التطور غدا .. فإن علماء النشوء استباحوا لأنفسهم أن يرجحوا وقوع تحول الأنواع وتقدم الإنسان جسدا وعقلا منذ ألوف السنين ، ولكننا لا نعلم أن واحدا منهم أباح لنفسه أن يتنبأ بتطور واحد سيحصل غدا لا محالة ، أو بتحول واحد مرجح لا يقابله ترجيح مثله إلى النقيض .

وعذرهم في هذا التهيب مفهوم ، وهو أدل شئ على أن دلائل التطور الماضى لم تزد عند القائلين بها على أن تكون بعض الظنون الراجحة ، ولم تبلغ عند عالم جدير بصفة العلم أن تكون علم يقين ..

عذرهم أن العالم يرسم الطريق كلما تكلم على الماضى ليس إلا ، ولكنه ينشئ الطريق ويتمشى فيه كلما أنشأ جزءا منه حين يسير إلى المستقبل ، ولا يتساوى من يفتح طريقا ومن لايزيد عمله على رسم طريق .

إن كان بين علماء العصر من يحق له أن يعلن رأيا جازما عن مستقبل التكوين الإنسانى كما يتمثله علم الحياة فذلك هو « البيولوجى » الكبير الأستاذ « مداوار » **Madawar** صاحب جائزة نوبل للعلم الطبيعى « سنة ١٩٦٠ » وصاحب البحوث العالية فى تهيئة جسم الإنسان لقبول الأجسام الغريبة التى تنفر منها خلاياه على الرغم

من تقسيم الآدميين إلى فصائل وعائلات فى تكوين الدم وأنسجة الخلايا .، فانه قد تبين له من تجارب يضيق بها الحصر أن الفرد الإنسانى وحدة لا تتكرر فى مكونات بدنه ، وأن كل حكم على بنيته من طريق التقسيم إلى فصائل وعائلات فهو تقسيم قابل للخطأ عند إجراء التجارب الطبية لنقل الأنسجة والأعضاء من بنية إلى بنية ..

وقد سئل هذا العالم الكبير أن يلقى محاضرات ريث Reith عن (سنة ١٩٥٩) فقال إنه لم يكن ليبلغ به الادعاء أن يلقى هذه المحاضرات بعنوان مستقبل الإنسان لولا أنه عنوان مقترح عليه ، ولكنه على هذا لم ينفرد بالرأى فى مسألة من مسائل البحث المقترح ولم يعلن رأيا واحدا قبل أن يراجع فى موضوعه زملاءه الثقات فى مسائل ذلك الموضوع على التخصيص ، وقد ذكرهم بأسمائهم فى تمهيده للمحاضرات . وبعد أن ذكر فكرة « البيولوجيين » الذين يحسبون أن تعدد النماذج الفردية قد يحول دون التوليد لإخراج النسل على نمط مقدور ، مضى يقول : « إن الأمر يدعو إلى التساؤل : هل يتأتى للانسان أن يمضى متطورا غدا كما تطور بالأمس، أوأن هنـــاك أسبابا تدعو إلى الظن بأن هذا التطور قد بلغ أقصى مداه ؟ ..

وطفق الأستاذ يقلب وجوه النظر ويعادل بينها حتى بلغ نهاية محاضراته وهو لم يجزم قط بمصير محدود ، ، سوى أنه رجح بعض الفروض ولم ينس أن يذكر أنها فروض تحيط بها الشكوك والاحتمالات ..

قال — مثلا — إن الاحصاءات فى بريطانيا العظمى دلت على تكاثر نسبة المواليد الذكور بعد الحروب ، وإن بعضهم فسر ذلك بأن الطبيعة تعمل لتعويض النقص على عادتها فى كثير من المشاهدات ، فهو تفسير ليس بالغريب ، ولكنه قد يبطل اليقين به أن هذه الزيادة أيضا قد شوهدت فى أمم لم تفقد أبناءها فى الحرب ولم تكن من الأمم المقاتلة .

وقابل الأستاذ بين طرائق الاحصاء ، ومنها طريقة المقارنة بين سنة وسنة ، وهى غير وافية بالمقارنة الدقيقة ، وبين طريقة اختيار طائفة من الرجال والنساء وتسجيل ما يحدث لهم على مدى الفترات الطوال ، كل عشرين أو ثلاثين سنة ، وقال إنها طريقة لم تكن ميسرة الوسائل قبل السنين الأخيرة .. ولكنها تيسرت الآن

لانتظام الاحصاء فى شتى مظاهر الحياة ، ومنها تسجيل نسبة الجنسين وتسجيل معدل العقود الزوجية وسن الذكر وسن الأنثى عند الزواج ، وتسجيل هذه السن عند ولادة كل مولود أو مولودة ، وهذه الطريقة تفيد ما لا تفيده الطريقة الأولى عند تعليل تعويض المواليد للوفيات ، لأنها تبين الوقت الذى تحدث فيه أوائل المواليد وتبين للقائمين بالاحصاء هل يزيد العدد لزيادة الخصوبة العائلية أو لزيادة الوقت المحدود للاحصاء ؟

ولم يتقبل العالم البيولوجى بالارتياح عبارة المتشائمين الذين يفهمون من كلمة الانحدار أو هبوط الاستعداد الحيوى أن النوع الإنسانى سينحدر حتى ينقرض ، وقال إن العبارة « متحف من النقائض » فإننا إذا استطعنا بالعناية أن نحتفظ إلى اليوم بأناس كانوا – لولا ذلك – قد أصبحوا أمواتا قبل عشر سنوات ، فنحن كيفما كانت الحال نعيش اليوم ولا نعيش قبل عشر سنوات .. كذلك يمكن أن تعصف نازلة من النوازل بالعقاقير التى تداوى بعض الأمراض ، فلا يكون مآل ذلك إلا أن الذين سيموتون غدا قد يموتون اليوم بدلا من ذلك .

ومن دواعى تصعيب النبوءة عن المستقبل أن التغييرات المحتملة بين أفراد البشر أكثر جدا من التغيرات التى تقع فعلا ، وأن اختلاف اثنين من البشر فى الواقع قد يعنى قبل ذلك افتراض عشرات من الأفراد مختلفين كذلك الاختلاف أو أبعد وأخفى .. ومن أقدم الأسباب المعلومة عند الجينيين **Geneticists** لاحتمالات التغيرات المتعددة ما يسمى بقابلية المقايضة بين الصبغيات .. وهى عملية يمكن أن تتم إذا كانت كلتا الصبغتين مماثلة للأخرى تماثلا يميل بها إلى الامتزاج ثم اعادة الامتزاج على أشكال طارئة مبتدعة . وربما جاء اليوم الذى يستطيع فيه الكيميون والطبيعيون الحيويون أن يحدثوا هذا الامتزاج ، وخليق بهذا أن يذكرنا أهمية التحول الفجائى **Mutation** وما يترتب على إمكان إحداثه من تغيير النسل بالانتخاب الصناعى . والمشاهد من أطوار جراثيم « البكتريا » أن لها خاصية عجيبة وهى خاصة الاحتياط لمعالجة الأضرار التى قد تطرأ فى المستقبل ، وربما وجدت فى الناس خاصة كهذه يدل عليها نجاة فريق منهم من الأوبئة والعلل المنتشرة ، وكمون ضرب من المناعة

يزود خلاياهم الناسلة بمثل ذلك الاحتياط لمقاومة آفات المستقبل . وقد يدهش السامع — بعد كل ما عرف عن الوراثة — أن يعلم أنه لم توجد بعد فكرة وافية عن الأمور التى تفعل والأمور التى تجتنب لتحسين نتائج الحيوان بالانتخاب الصناعى ..

ويؤخذ من استطراد العالم البيولوجى فى أمثال هذه العوامل الجينية أن العلم بها يفتح آفاقا من فروض التغييرات المحتملة يقصر عنها وسع النبوءة والتوقع ، وأن الاستعانة بالمعارف المستحدثة تمكن الإنسان من معرفة وسائل التحسين فى الذرية ووسائل اتقاء الانحطاط فيها ، ولكن هذه الوسائل لم تضبط — بعد — على يقين من نتائجها .

ولكن ترقية النسل لا تعتمد كلها على ضبط هذه الوسائل الجينية ، لأن هناك وسائل التفكير أو وسائل الخصائص التى قد تنتقل بالوراثة من الدماغ ..

قال الأستاذ مداوار فى محاضرته الأخيرة : « إننى فى هذه المحاضرة الأخيرة سأبحث فى الكائنات البشرية عن وسيلة جديدة — غير الوسيلة الجينية — للوراثة والتطور مبنية على خصائص وحركات مصدرها الدماغ .

« وإن وجود هذه الوسيلة أمر تعرفونه جيد المعرفة .. فلم يكن البيولوجيون هم أول من أفضى إلى سراع إلى التصديق بأن الكائنات البشرية ذات أدمغة ، وأن الأدمغة تحدث فروقا شتى ، وأن الإنسان قادر على أن يؤثر فى الأعقاب الآتية بوسيلة غير الوسيلة الجينية ، وإن كثيرا مما قرأت فى أقوال البيولوجيين ليلوح عليه أنه لا يفيدنا بشئ يزيد على ما ذكرت لكم . وإنى لأحس أن البيولوجى مطالب بأن يسهم بنصيب يساعد على فهم الأصول البعيدة التى تتفرع عليها الأخلاق وضروب السلوك ، وهو ما أحاوله الآن .. ولابد أن تأتى هذه المحاولة مستندة إلى التفكير الصلب لا إلى التفكير «الناعم» .. وأعنى بذلك تفكيرا يعرف له حيز واقع وتدرك له تفصيلات بينة ، مقابلا للتفكير الذى يجد متنفسه فى الكلمات المونقة والعبارات المفخمة الشعرية .

« وأرانى أقارب الوضوح البين إذا عبرت عن ذلك بمثال محسوس ، وأسألكم أن تعيدوا إلى الذكر ذلك الفارق الهام بين الصندوق العازف والجهاز الحاكى « الجرامفون » .

« فالصندوق العازف جهاز يحتوى قالبا أو أكثر من قالب من قوالب الجرامفون يعيد للسمع كل ما أودعه عند لمس زر معلوم ، واسمى لمس ذلك الزر بالباعث أو المحرض .. وهو باعث مقصور على القالب الذى يؤدى إلى سماعه ، فهو مؤثر واحد يأتى بأمر واحد بينهما هذه العلاقة المتبادلة . وإننى أبعث الصندوق بلمس الزر — أى زر — إلى إحداث نغمة موسيقية ، ولكننى إذا اخترت زرا معينا فالباعث هنا يدعوه إلى إحداث نغمة دون سائر النغمات الموسيقية ، والتوجيهات الموسيقية فى هذه الحالة جزء من الصندوق وليست جزءا من البيئة المحيطة به وكل ذلك راجع إلى تركيب الصندوق فليس ضغطى على الزر توجيها للصندوق فى أداء نغماته الموسيقية .

« ... والآن تقابلون بين هذا وبين عمل الجرامفون أوأية أداة أخرى تؤدى لنا النغمات الموسيقية :

إن لدى قوالب موسيقية أقوم بتحريك بعض المفاتيح وأضع القالب على الجرامفون والقالب منقول إليه من البيئة المحيطة ... فذلك باعث كباعث الصندوق العازف إلى أداء الأنغام الموسيقية ، ولكنه يضيف إلى الباعث هنالك شيئا أكثر من ذلك .. وهو الخطوط المرسومة التى تمر بها الإبرة فتبعث منها الأنغام المؤداة ، وليس لدى الجرامفون مصدر للتوجيهات الموسيقية وإنما هو القالب الذى جاء إلى الجرامفون من البيئة الخارجية ، فكانت علاقتى به — إذن — علاقة تعليمية ، لأننى — بمعنى من المعانى — قد علمته كيف يؤدى النغم المسموع .

« ... ونحن فى الحالتين صنعنا الصندوق وصنعنا الجرامفون وأعددنا كلا منهما للعمل الذى يؤديه ، ولكن هذه الحقيقة لا تقدم ولا تؤخر فى مغزى الاختلاف بين عمل هذه الأداة وعمل تلك .. فلنذكر هذا الاختلاف فيما يلى من المقارنات ..

« ... منذ عشر سنوات اتجه البيولوجيون إلى العلم بأن الأجهزة الحية العليا أشبه

بالصندوق العازف منها بالجرامفون ، وأن كل ما كنا نحسبه من قبل حركات تعليمية هو فى الواقع حركات تنبيهية ليس إلا .. أى أن تحريك الكائن الحى يحدث شيئا هو نتيجة تركيبه وليس – كما كان مظنونا – نتيجة شئ من الخارج .. فليست الآثار المستقرة فى الجهاز الحى خطوطا مرسومة على قالب يديره ذلك الجهاز، ولكنها آثار جينية مودعة فى الصبغيات وحوامض الخلايا .

« واسمحوا لى أن أبين بعض الأمثلة لهذه الحقيقة :

« «فأقدم الأمثلة وأشيعها مثل التغيير الذى يعترى جمهورا من الناس عرض له التطور،فكيف نصنف البواعث التى تفعل فعل التطور فى الأجهزة الحية؟..إن النظرية اللاماركية التى تقول بوراثة الصفات المكتسبة ، هى على أعمها تنظر إلى البواعث التعليمية وتعنى أن البيئة على نحو من الأنحاء قادرة على إعطاء تأثيرات تعليمية للأجهزة الحية ، وإن هذه التأثيرات إذا سرت فى البيئة سريانا حسنا أمكن أن تنتقل بالوراثة إلى أعقابها .. فالحداد الذى طالما ضرب به المثل لتعزيز هذه الملاحظة ، يستفيد قوة فى ذراعيه من طرق الحديد فتؤثر هذه القوة فى الخلايا التى تنشىء بذوره المنوية وتنتقل من ثم إلى أبنائه ، فيولد هؤلاء الأبناء وفيهم استعداد لتربية الأذرع القوية .. ولست أفيض فى مناقشة التجارب التى تكررت لامتحان العوامل اللاماركية .. وحسبى أن أجملها فأقول إنها جميعا أسفرت عن نتائج غير لاماركية ، ودلت على مؤثرات تنبيهية وليست تعليمية .

« ومثل آخر من الأمثلة الشائعة هو مثل البكتريا إذا أعطيت طعاما غير طعامها المألوف أو تعرضت لعقار مضر بقوامها ، فإنها فى هذه الحالة قد توفق بين قوامها وبين الطعام الجديد أو تزيل ضرر العقار وتلغى مفعوله ، وقد سميت هذه العملية زمنا باسم تدريب البكتريا على اعتبار أنها عملية قادت البكتريا إلى تعلم طريقة جديدة لتوليد الخمائر من طعامها ، ولكنها تسمية لم تلبث طويلا حتى تبين خطؤها وتبين أن هذه العملية وسيلة تنبيهية وليست بالوسيلة التعليمية . . فليس فى وسع البكتريا أن تنشئ خميرة غير التى هى مفطورة على إنشائها ، وكل ما حدث عند تغيير الطعام أنه نبه الاستعداد الذى لم يكن له منبه قبل ذلك ، وهو استعداد كامن فى التركيب وليس بالتعليم المستفاد من فعل الطعام أو العقار ..

« ويصدق هذا على تطور الحيوان .. فقد كثر الجدل زمنا بين أنصار القول بالتنبيه وأنصار القول بالتعليم ، إذ كان الأولون يرون أن كل تطور فإنما هو نشر لما كان مطويا هناك ، وكان المتطرفون منهم — وطالما تعرضوا للسخرية — يرون أن بذرة النسل إنما هي إنسان صغير . أما الآخرون فعندهم أن العوارض التي تعمل في تكوين الجنين إنما هي بواعث تعرض له مما حوله . ولعل الحقيقة وسط بين هذين الطرفين ، فالعوامل الجينية تتم لأنها كامنة هناك ولكن استيفاءها رهين بالعوامل الخارجية عنها ..

« وإلى نحو سنتين كنا نشعر أن ضربا من التمويه يتم في أجهزة الحيوانات العليا بفعل البيئة على اعتبارها موجها أو معلما ، على النحو الذي نشاهده عند تلقيح الأنسجة بمادة خارجية ، يؤدي إلى إنشاء البنية لمادة بروتينية خاصة .. أغلب ما يكون عملها أن تحول دون تلك المادة والاضرار بالبنية ، مما يكون له أثره في الوقاية من عدوى الأمراض ..

ومع البوادر التي توحي بأن هذه العملية تعليمية ، أخذ كثيرون من البيولوجيين يشكون في ذلك ويعتقدون أنها لا تعدو أن تكون تنبيهية في جوهرها ونعود إلى الصندوق العازف مرة أخرى ..

«وبعد .. فأي ظفر يتاح لنا لو أمكن البنية أن تتلقى التعليم من البيئة وأن نجعل هذه البيئة قادرة على أن تعلمها ولم يكن قصارى قدرتها أن تنبه ما فيها ؟ .. ربما قال لنا زائر قدم إلى هذا الكون من كون غريب عنه قبل بضعة ملايين من السنين ، نعم .. إنه لظفر عظيم ، وإنني لألمح سره وأفهم أن هذا السر يحل مسألة التوفيق والموافقة بين الحي والبيئة ، ويجعل الكائنات الحية مهيأة للنمو والتطور على صورة أوفى وأسرع من صورة التطور بفعل الانتخاب الطبيعي ، لولا أنها صعبة جدا وأنها ليست مما يستطاع ..

إلا أنكم تعلمون أنها استطيعت ، وأن هنالك جهازا قابلا لأن يتلقى التعليمات من الخارج وهو جهاز الدماغ .

« وإننا لنعلم القليل من أسرار هذه المسألة ، وهو ما نفهم منه مقدار تعقدها

واشتباك وظائفها .. فإن تطور الدماغ قد كان آية رائعة فى هذا الوجود ، وهو – ولا ريب – أعظم الآيات بعد آية الحياة نفسها ..

« على أننى أظن أن الدماغ إنما نشأ فى مبدأ أمره كذريعة للتنبيه ، وإن السلوك الغريزى إنما هو ذلك السلوك الذى تستجيب به البنية لتنبيه المؤثرات الخارجية ، فإذا لقحت دجاجة بهرمونات الذكر أخذت هذه الدجاجة فى سلوك كسلوك الديك لم يكن أصله بعيدا من تكوينها .

« ولكن وظائف الدماغ العليا تستجيب للمؤثرات التعليمية فنحن نتعلم ...

« ... ولا يقف الأمر عند هذا الحد بل يسرى من جيل إلى جيل كما تسرى الخطابات المتسلسلة التى تبدأ بكتابة خطاب إلى أحد الناس ، وتسأله أن يبعث به إلى غيره ويوصى ذلك الغير بأن يبعث به كذلك إلى آخر وآخر إلى غاية الشوط الميسور ، فيتعلم الأب ويعلم ابنه كيف يعلم حفيده وابن حفيده وهكذا ، على مدى الأجيال ..

« ... ومن المهم جدا أن نميز بين أربعة أدوار فى تطور الدماغ : أولها الجهاز العصبى وقد نشأ لتنبيه البنية .. ثم دور الدماغ وفيه تتلقى الكائنات الحية التعليم من الخارج ، ثم دور الوراثة من طريق غير الطرق الجينية يأتى من قدرة الدماغ الدقيق التركيب على شئ أكثر من تلقى التعليم وهو تسليمه إلى آخرين . وإنه لعامل خاص بالنوع الإنسانى لعله قام بعمله الهام منذ خمسمائة ألف سنة .. أما الدور الرابع فهو شديد الشبه بالدور المتقدم ولكنه لا يماثله تمام المماثلة ، ونعنى به دور التطور الذى يشمل الجماعة كلها وقد تضاعف عمله منذ مائتى سنة ..

ونسأل بعد هذا ما الذى نستفيده مما تقدم ؟ فنقول إن الاغترار بالمشابهات خطر لأنه يغض من أثر الاختلافات .. فالمشابهة بين تطور الفرد وتطور الجماعة لا يجعلهما عملية واحدة فى مجرى الحوادث ولا فى عواقبها .. فصناعة الحداد تورث ولا شك، ولكن وراثتها من طريق الناســـلات والصبغيات – أو ما نسميه بالطرق الجينية – غير مستطاعة .. وفائدة التمييز بين التطور الفردى وتطور الجماعة أن نبعد عن أذهاننا فكرة القوانين الطبيعية التى تعمل فى الحالتين على سنة التغييرات الجينية ، أو

الفكرة التى تقول لنا إن الجماعة لابد أن تولد وأن تموت كما يتعاقب الموت والولادة على الكائنات الحية ، أو الفكرية التى توحى إلينا ترك الجهد فى تحسين الجماعة اعتمادا على أن الطبيعة أخبر وأدرى .

* * *

« ونحن إذن نستطيع أن نهذب الطبيعة ، ولكن استطاعتنا هذه مرهونة بمقدار ما نملك من وسائل الغوص على أسرارها وخفاياها ومثابرتنا على زيادة محصولنا من العلم بما يجرى فيها .. ولست أقول إن الإنسان مدفوع بغريزة تحفزه إلى الكشف والاستطلاع وإنه مسخر أبدا فى طلب الحقيقة ، فإن الحيوان أيضا مزود بما يمكن أن يسمى على الاجمال حبا للتطلع أو التجسس ، ولكن هذه الغريزة وإن بلغت غايتها من الإحكام والقوة لا تقيدنا ولا ينبغى أن نكون مدفوعين دفعا إلى الاستطلاع، وإن أولئك الذين يبسطون لنا قوانينهم عن مقاصد الطبيعة يقاربون حدود الخطر والوبال .. وما علينا إلا أن نذكر عاقبة الدعوى التى زعم أصحابها أن الإنسان مزود أبدا بنزعة النضال والقتال .. ونحن نقابل بيننا وبين أنواع الحيوانات الأخرى ، فنرى على التحقيق أن الفارق بيننا وبينها فى هذه الخصلة هو أن الأجراس التى تدق لنا دقات التنبيه إنما هى كأجراس الماشية بجبال الألب معلقة بأعناقها فلا لوم على أحد سوانا اذا لم نسمع منها ما يرضينا » .

* * *

هذه خلاصة مقتبسة من كلام العالم البيولوجى اقتباسا تحرينا فيه تصوير معناه ولم نلتزم حروف نصوصه ، ومجمل هذا المعنى أن مستقبل الإنسان الطبيعى مستكن فى كيانه وأنه يملك وسائل التهذيب الاجتماعى ولكنه لا يقدر على إحداث أثر لم تكن مولداته مطوية فى استعداده ، وإن الأجراس التى تدق له دقات الخطر على حياته النوعية أو الفردية هى نفسها جزء من تلك الحياة ، وكذلك العلاج الذى يحتال به على الخطر بعد الانتباه إليه إنما هو من عقار أرضه ووصفات طبه .

دواؤك منك وما تشعر وداؤك منك وما تفكر

* * *

وقبل الأستاذ مداوار بخمس عشرة سنة ، عند نهاية الحرب العظمى تقدم للاجابة على هذا السؤال عن مستقبل الإنسان عالم بيولوجى من المؤمنين بالنشوء والتطور ، يضارع مداوار فى منزلته العلمية وشهرته العالمية فكتب عن القدر الإنسانى Human Destiny سلسلة من البحوث الحديثة على منهج غير منهج زميله المتأخر ، لأنه يفترض الغاية المرسومة للتطور ، ويرد مقاصده جميعا إلى عناية إلهية تتلخص حكمتها الهادية فى أنها « تريد » ولكنها تعلم الخلائق أن تريد لنفسها وأن تترقى بالإرادة على حسب جهودها ، مع الهداية التى تلهمها ولكنها لا تلهمها إلا لكى تعينها بالالهام على أن تعمل عملها وتسلك سبيلها .

ومؤلف كتاب القدر الإنسانى هو العالم البيولوجى الجليل ليكونت دى نوى De Nouy الذى يقول ان استمرار النشوء والقول بالمصادفة مفارقة لا تعقل ، وهو يشبه مجارى النشوء فى الكون بجداول البحيرة التى تنصب من فوق الجبل إلى مستقرها فى الأودية ، فتمر بالصخور والرمال وتلتقى أو تفترق وتحمل معها ألوانا من الرواسب والطوافى تخالف بينها آخر الأمر حتى كأنها ينابيع لم تصدر من أصل واحد ولم تجر على سنة واحدة ، والواقع أنها ليست كذلك وأنها فى أصلها من بحيرة واحدة وفى حركتها خاضعة لقوة واحدة هى قوة الجاذبية .

وعند « دى نوى » أن نظرية لامارك عن التوفيق بين البنية والبيئة ، ونظرية دارون عن الانتخاب الطبيعى ، ونظرية التحول الفجائى فى رأى نودين — دى فرى De Vries — Nudin — كلها صالحة للمساهمة فى تفسير عوامل النشوء والتطور .

قال : « ونعيد مرة أخرى أن التطور لن يكون مفهوما إلا إذا سلمنا أنه خاضع لغاية ، وأنها غاية بعيدة مقدورة » .

ثم ختم بحوثه قائلا : « إن بعضهم قد يرى أننا لا نزال على مسافة بعيدة من اليوم الذى يصبح فيه الإنسان وقد تطور التطور الذى يجعله أهلا لأن يشعر بضميره، وألا يكون كل حقه فى المعـاملة أن يعامل كما يعامل الطفل القاصر ، وربما صح هذا ولكنه — إذا صح كان خليقا أن يصبح سببا للاتجاه بجهوده إلى تلك الغاية:

« وإن الإنسان المتطور قد بلغ حالة من نمو الضمير تيسر له أن يوسع أفق النظر وأن يلمح الدور العظيم الذى يضطلع به فى انجاز غايات التطور ، فليس الإنسان كذلك الحيوان الأعمى الذى يعمل فى أعماق البحر ولا يدرى أنه يبنى بعمله جزيرة مرجانية سوف تعمر بالكائنات التى هى أصلح منه وأعلى . لأن الإنسان يعمل وهو يعلم أنه رائد للسلالة المقبلة التى ستكون على وجه من الوجوه وليدة سعيه وجهده .. وعلى كل إنسان أن يذكر أن القانون قد كان ، وسيبقى كما كان ، أن يناضل وأن النضال لم يهدأ لأنه تحول من الميدان المادى إلى ميدان الروح . وعليه ألا ينسى أن كرامته باعتباره كائنا آدميا ، ينبغى أن تصدر من جهاده فى تحرير نفسه ، وأن ينقاد فى ذلك الجهاد لأعمق البواعث من قرارة وجدانه ، ولا ينسى أبدا أن الشرارة الإلهية كامنة فى تلك القرارة ، فى قراراته دون غيره ، وأنه هو حر قادر على أن يهملها وأن يقتلها قدرته على أن يقترب من الله وأن يعرب عن غيرته على العمل مع الله والعمل فى سبيل الله » .

* * *

ولقد آل تطور الإنسان عند غير البيولوجيين إلى تطور الإنسان الصانع وقيام الصناعة الكبرى مقام الصناعات الصغيرة التى بدأت منذ مئات القرون ، فجعلت الإنسان سيد الخليقة حين جعلته قادرا على العمل بيديه واختراع الآلة المصنوعة لانجاز عمله . وستفعل الصناعة الكبرى بأيدى المجاميع البشرية فعل الاداة الحجرية قبل مئات القرون بيد الإنسان الأول ، إذ لم تكن له قدرة على الحيوان الأعجم غير تلك الأداة .

ولا نخال أن أحدا عبر عن هذا الرأى تعبيرا أدنى إلى الفهم من تعبير الأستاذ رسل هاريسون فى كتابه : « ماذا يكون الإنسان » .. فإنه ترك لغة « بابل » الحديثة: لغـــة البلبلة العلمية بين الفروض الصريحة والفروض المبهمة والمقابلات من هنا والمعارضات من هناك ، ووضع أمل التطور حيث ينبغى أن يوضع إن كان له موضع على الإطلاق ، وذلك هو موضعه في « الشخصية الإنسانية » ..

فلا مستقبل للإنسان إن لم يكن مستقبلا لشخصيته الكاملة ، ولا تطور لهذه

الشخصية إن لم تكن شخصية « ذات جوانب » ولم تكن جوانبها براء من النقص والخلل ..

إن الشخصية الإنسانية عاطفة ، وعقل ، وضمير ، وليست مجرد أعضاء ووظائف وخلايا وأعصاب . ومعنى تطور الإنسان فى الذهن أن تتم له هذه الشخصية بعد ما نبتت له بذورها مع أطواره الماضية ، وليس فى الواقع ما يمنع « الشخصية الإنسانية » أن تتحقق كما تحققت فى الذهن ، فكرة قابلة للتمام ..

عود على بدء

بعد هذا الشوط فى عرض المذاهب والآراء عن الإنسان نسأل على ثقة من الجواب :

– هل صحيح أن القرآن يلقى بالإنسان غريبا منقطعا فى القرن العشرين؟ ..

والجواب الذى لا تردد فيه ، أن القرآن – على النقيض من ذلك – يضع الإنسان فى موضعه الذى يتطلبه ، فلا تسعده عقيدة أخرى أصح له وأصلح من عقيدة القرآن ، لأن عصر العلاقات العالمية لا يتطلب « مواطنا » أصح وأصلح من الإنسان الذى يؤمن بالأسرة الإنسانية ، ويستنكر أباطيل العصبية ومفاخر العنصرية ليعترف بفضل واحد متفق عليه فى كل أرض وبين كل عشيرة آدمية .. وهو فضل الإحسان فى العمل واجتناب الإساءة ، وليس لهذا العصر حق على بنيه أصح وأصلح من حق الشعور « بالمسئولية » والنهوض بأمانة التكليف والاحتكام إلى العقل فى كل ما يسعه العقل ، ثم اطمئنان الضمير إلى الخير فيما خفى عليه من شئون الغيب المجهول ، ولابد فى كل عصر حديث أو قديم من غيب مجهول.

إن القرآن يعطى القرن العشرين إنسانه الذى ليس من إنسان أصلح منه وأصح لزمانه ، فإذا آمن هذا الإنسان بالله وبالنبوة فليس أصح ولا أصلح لعصر الوحدة الإنسانية من الإيمان برب واحد للعالمين ، وبنبوة تختم النبوات ... بعد الإيمان بهذا الإله الواحد ، لتسلمه إلى عقله وضميره ، وتسأله عن إصلاح نفسه وإصلاح دنياه بما يدعوه إليه قوام الروح والجسد وطيب الحياة فى الدنيا والآخرة .

وإذا كان هذا هو إنسان القرآن بحرفه ومعناه ، فلا حاجة بالناقد المنصف إلى حظ كبير من الترفع لينظر من عل إلى أولئك المتعاملين المتوقرين ... أولئك الذين يزعمون أنهم قابلوا بين العقائد ، فخرجوا منها بمقطع الرأى وقال لهم مقطع الرأى هذا أن القرآن نسخة مكررة – بل مشوهة – من هذه الديانة أو تلك الديانة ،

وأنه لم يحدث بعدها جديدا في عالم الروح وعالم العقيدة وهو الذى هدى العالم فى أمر الإله وفى أمر النبوة وفى أمر الإنسان إلى هذا الفتح المبين .. وما من بقية فى لباب. العقيدة بعد هذا الجديد الدائم فى أمر الحقيقة الإلهية وأمر الرسالة والهداية ، وأمر الكائن الحى المميز بين مخلوقات الله أجمعين : وهو هذا الإنسان الذى تخاطبه الأديان ..

* * *

وقد رأينا مدى الموافقة بين عقائد الحكماء وآيات القرآن فى كثير مما عرضناه أو أشرنا إليه فيما تقدم . وقد نرى – أهم من ذلك – أن آيات القرآن تفسح للعقل الإنسانى كل طريق من طرق البحث والتأمل ، فلا تصده عن طريق قط يترقب منه معرفة نافعة توافق المعارف الشائعة أو تناقضها ، فما من طريق يسلكه الباحث الصادق هو طريق مغلق أمامه بحكم من أحكام القرآن ، إلا أن يكون الطريق الذى لا يفتحه يوما دين يدعو إلى الله : وهو طريق الإلحاد .

ففيما تقدم من شروح حكماء الإسلام ما هو أعجب من فروض النشوئيين بعد القرن التاسع عشر عن الأحياء ودرجاتها من البهيمية إلى القرد إلى الإنسان ، وللنشوئيين المحدثين آراء قد يستمدون تأييدها – لو شاءوا – من آيات قرآنية فسرها بعضنا تفسيرا يتقبله القائلون بتنازع البقاء وبقاء الأصلح وتتابع الأطوار :

﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ ﴾
(سورة البقرة آية ٢٥١)

﴿ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾
(سورة الرعد آية ١٧)

﴿ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴾ (سورة نوح آية ١٧)

فهل من الواجب على المؤمن بالقرآن أن يلتمس فيه تأييدا لأصحاب « النظريات » والفروض فى كل عصر يظهرون فيه ؟ .. نقول «كلا ولا ريب » لأنها قد تثبت كلها أو بعضها ، وقد يطرأ عليها النقض أو التعديل بين جيل وجيل ، ولكن القرآن يعمل عمل الدين الصالح إذا سمح للعقل أن يلتمس الحقيقة مع كل فرض من الفروض وترك له أن ينتهى بها إلى نهاية شوطه مسئولا عن نتيجة عمله وعما يفيد أو لا

يفيد من جهوده ومحاولاته ، فليس من عمل الدين أن يتعقب هذه الفروض والنظريات فى معرض الجدل لتأييد تفسير أو خذلان تأويل ، وحسبه أنه يملى للعقل فى عمله ولا يصده عن سبيله ، فهذا هو الوفاق المطلوب بين العقيدة والبحث وبين الإيمان والتفكير..

فإذا أخطأ من يقحم القرآن فى تأييد النظرية العلمية قبل ثبوتها ، فمثله فى الخطأ من يقحم القرآن فى تحريمها وهى بين الظن والرجحان ، وبين الأخذ والرد ، فى انتظار البرهان الحاسم من بينات العقل أو مشاهدات العيان ..

وقد أخطأ هذا الخطأ جهلاء الدين والعلم الذين حرموا القول بدوران الأرض ، وهو أثبت من وجودهم على ظهرها ، وأخطأ مثلهم من حرموا القول بجراثيم الوباء وهى — فيما تبين بعد ذلك — إحدى حقائق العيان .

ومذهب التطور — خاصة فيما يتعلق بتحول الأنواع — لم يثبت بالدليل القاطع ، لأن أنصاره لم يذكروا حتى لآن حيوانا واحدا تحول من نوع إلى نوع بفعل الانتخاب الطبيعى ، أو بفعل تنازع البقاء وبقاء الأصلح ، ولكن بطلان القول بهذا الانتخاب لم يثبت كذلك بالدليل القاطع على وجه من الوجوه ، وليس فى القرآن ما يوجب علينا أن نقول ببطلان الانتخاب الطبيعى ، لأن خلق الإنسان من الطين لا ينفى التحول إلى غير الطين ولا يوجب علينا القول بكيفية الخلق من الطين على صورة من صور التركيب ، وإنما نعلم من القرآن أن الله بدأ خلق الإنسان من طين..

﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ (سورة السجده آية ٨)

وفى آية أخرى : « مِنْ سُلاَلَةٍ مِنْ طِينٍ » فلا اختلاف بين هذا وبين التحول الذى يثبت — إذا ثبت — على وجه من الوجوه .

ومذهب النشوء — مع سائر العلوم الحديثة — يقول لنا عن المستقبل البعيد أضعاف ما قاله لنا عن الماضى البعيد : هل يتطور الإنسان فى المستقبل مع قوانين الوراثة العلمية أو لا يتطور ؟ وهل يعرف العلماء مسلكه فى طريق التطور أو لا يعلمون ؟

من رجع إلى القرآن ليعلم حكمه فى التطور المقبل وجده على العهد به يملى للعقل ولا يصده عن طريق يرجى منه النفاذ إلى علم مجهول . وفيما تقدم كلام نقلناه عن أهل العلوم « المختصة » بتطور الأحياء وقوانين التوريث ، نلتفت إليه فنعلم أن قوانين « الناسلات والصبغيات » فى الأرحام لم تنبئهم بخبر يهدى إلى مصير معلوم ، وأثبت ما عندهم من نبأ أن الغد كله مرهون بميراث العقل والمشيئة والإيمان ...

فالذى يعرفه علماء الأجنة وقوانين الوراثة غير قليل بالنظر إلى ما كان معروفا من ذلك قبل مائة سنة ، ولكنهم — كثر أو قل — لا ينفعهم فى تنظيم عمل الوراثة بالانتخاب أو اللقاح فى ظلمات الأرحام ، وإنما ينفعهم أن يحسنوا هداية « الإنسانية » إلى خير ما تستطيعه العقول المميزة إذا صدقت النية على حب الخير ، وأجمعت العزم على استخلاص الذرية المختارة بالتعليم والإرشاد ، وجعلت مسألة التقدم و« بقاء الأصلح » مسألة فهم واعتقاد أدنى إلى البلاغ من لقاح الأصلاب والأرحام .

ونخال أن القرن العشرين لم يكن فى غنى عن هذه الهداية من علماء النشوء ، ولكنها الهداية التى تعلمها من القرآن من تعلم (أن صلاح الإنسان فكر وأمانة وايمان)و(أن الأرض يرثها عبادى الصالحون)

ونعيدها كلمات موجزة فى ختام هذه الصفات عن الإنسان فى عقيدة القرآن وفى عقائد الأقدمين والمحدثين :

إن القرن العشرين لم يضع الإنسان فى موضع أكرم له وأصدق فى وصفه من موضعه عند أهل القرآن بين خلائق الارض والسماء وبين أمثله من أبناء آدم وحواء: موضعه بين خلائق الارض والسماء أنه المخلوق المميز الذى يهتدى بالعقل فيما علم وبالإيمان فيما خفى عليه .

وموضعه بين آدم وحواء أنهم اخوة من عشيرة واحدة ، أكرمها من كرم بما يعمل من حسن ويجتنب من سوء ، وأفضلها من له فضل بما كسبه وما اتقاه ، لا يدان بعمل غيره ولا ينجو من وزره بغير عمله :

﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ « صدق الله العظيم » (سورة البقرة آية ١٤١)

فهـــرس

رقم الايداع بدار الكتب ٢٤٦٨

نهضة مصر
للطباعة والنشر والتوزيع